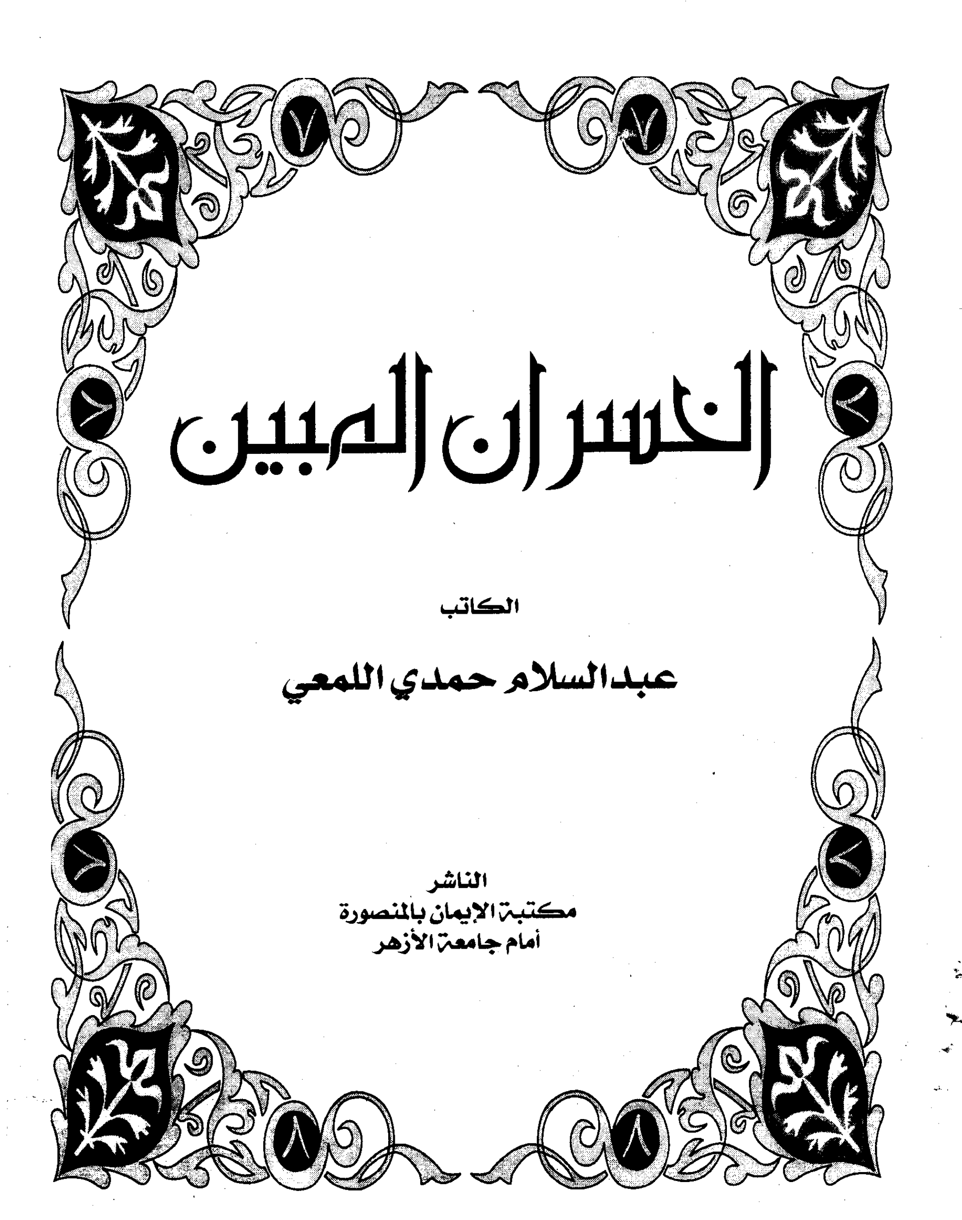


الخسران المبين

الكاتب

عبدالسلام حمدي اللمعي

الناشر
مكتبة الإيمان بالمنصورة
أمام جامعة الأزهر

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر

ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله وحده. صدق وعده، وأعز جنده، وحزم الأحزاب وحده، له الحمد في الأولى والآخرة وعشيًا وحين تصبحون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، خلق الزمان فلا يقال: متى كان، وخلق المكان فلا يقال: أين كان، ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الحديد: ٣].

وأشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدًا ﷺ شفيعنا يوم الفزع الأعظم، ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ** ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٥]، ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان: ٢٧]، ﴿ **يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ** ﴾ [الانفطار: ١٩].

وبعد...

﴿ **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾ [الأعراف: ٨٩].

كنا قد تناولنا في كتابنا الأسبق المعنون (هذا بلاغ للناس) ما للساعة من أشراط تعرف بها وتدل عليها وتنذر بقرب مجيئها، وتناولنا كذلك (آخر أيام الحياة الدنيا)، وانتهاء عهد الخلائق بها وما لهذا اليوم العظيم من هول، ووقع ورفع ووضع وفرار وإتيان وفزع وهلع وانفطار وتكوير وانشقاق وبعث وجمع

وحشر . . . إلخ .

ثم استوقفني قوله تعالى : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] .

واقتضى الحال أن أهتم بالبحث والدراسة والتدبر في تلك الآية الكريمة لقوله تعالى : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد : ٢٤] .

ولما غلبني الخوف من الجليل واشتغلت بالعمل بالتنزيل، استعدادًا ليوم الرحيل، شرعت في البحث عن طريق الخلاص والنجاة من قدر الله إلى قدر الله ، لأكون من الذين أطعمهم الله من الجوع ورزقهم الأمن من الخوف .

فأثمر الشروع على الانتهاء إلى تصنيف أهل الحشر إلى صنفين، كما قال تعالى : ﴿ **فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** ﴾ [الشورى : ٧] .

فاشتغلت أولاً من باب التيسير والتبشير بأهل الجنة وهم (فريق الجنة)، ﴿ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] .

فتقدمت للقارئ الكريم بكتاب تناولنا فيه الجنة ودرجاتها ونعيمها وبيان حسنها ومحاسنها، والسبل المؤدية إليها حتى الفوز العظيم بالنعيم المقيم، كما قال تعالى : ﴿ **نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾ [فصلت : ٣٢]. أصدرناه تحت عنوان : (الفوز العظيم) .

واجتهادًا مني في بيان طريق الغيِّ من طريق الرشد، رأيت أن أفرد عملاً آخر يتناول أهل النار، من خلال البحث في قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [فصلت : ٤٠] .

وذلك على سبيل الحث بالفرار من الله إلى الله ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ** ﴾ [الذاريات : ٥٠]؛ لأن أخذ العزيز المقتدر أليم ﴿ **إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ [هود : ١٠٢] .

فانتهيت إلى لقائنا هذا المعنون «**الخسران المبين**» لنتناول فيه ـ أصحاب النار ـ وهم (فريق السعير). إنهم أهل الضد بالكلية من قوله تعالى: ﴿**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ**﴾ نظير قوله تعالى: ﴿**فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ**﴾ [الأعراف: ٣٠].

ولقد ذكر الله تعالى وصفًا بليغًا حكيمًا للفريقين حين قال سبحانه: ﴿**مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [هود: ٢٤].

ومثل ذلك الكثير في غير موضع مما يظهر الأضداد بين الفريقين لقوله تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [البلد: ١٠]. ﴿**إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان: ٣].

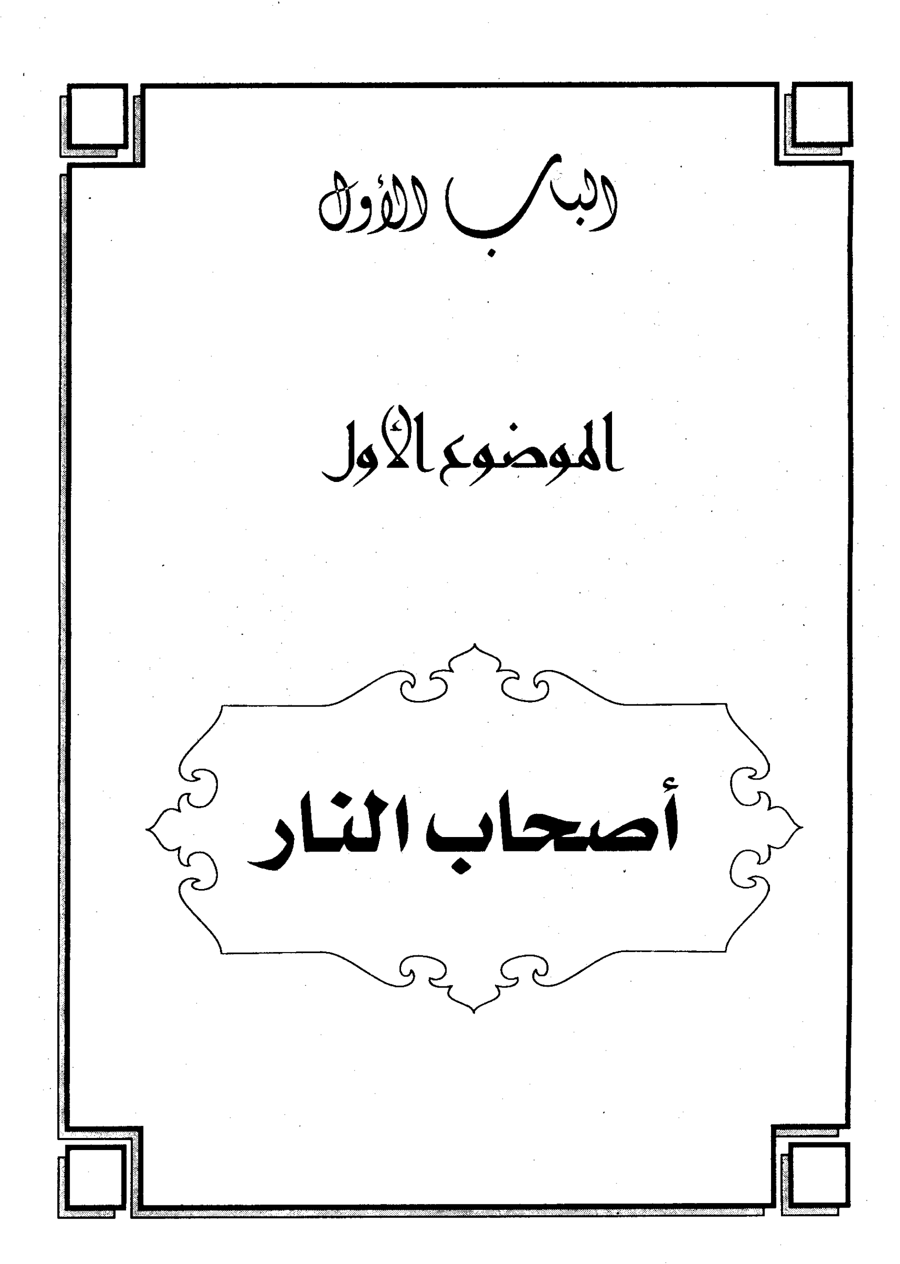
معًا نتناول بالبحث والكشف والدراسة والتحليل الموضوع الذي نحن بصدده وهو ـ النار ـ وتسمياتها ـ وأصحابها ـ ومن ثم دركاتهم ـ حياتهم ـ طعامهم ـ شرابهم ـ نداءاتهم.

والنار عندي هي (اسم جنس) ومن ثَمَّ فإنه عام ـ يشمل على كثير من دركات العذاب وأصنافه وألوانه، مما ورد في القرآن الكريم.

والله أسألُ السدادَ والتوفيق لما فيه الحق والخير والبيان والعون على توضيح الرؤيا لمن كان على بصره غشاوة وفي آذانه وقر، وقلبه غلف، عما جاء من الحق، وما نزل من الذكر، إنه تعالى نعم المولى ونعم النصير.

والله ولي التوفيق

الكاتب


الباب الأول
الموضوع الأول
أصحاب النار

● أولاً: أعداء الله ●

قال تعالىٰ:

﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ [فصلت: ١٩].

﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ [غافر: ٦].

﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ [الحج: ٧٢].

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ [البقرة: ١٧٤].

في الآيات الكريمات السابقات، وجدنا النار قد وردت اسمًا عامًا فهي إذًا (اسم جنس) يدلُّ علىٰ اشتمالها لكثير من أنواع العذاب وقد أشرنا إلىٰ ذلك سابقًا وسوف نبين من ذلك لاحقًا إن شاء الله تعالىٰ.

فاقرأ إن شئت قوله تعالىٰ: ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ [التحريم: ٦]. حيث تجد أن النار في الآية السابقة وردت بأسلوب التنكير تهويلاً من أمرها وتعظيمًا في شأنها وعمومًا لأنواعها وأصناف عذابها.

من ذلك ما قال تعالىٰ:

﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ [التوبة: ٤٩].

﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ [المائدة: ٨٦].

﴿ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

﴿ لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ١٠].

مما سبق نتبين أن أولى الناس بالنار، هم الذين كفروا بالله ورسله، والكتاب الذي أنزل، بل كذبوا بآيات الله جميعها وقدرته على الإحياء والإماتة والخلق والموت والبعث والنشور واليوم الآخر.

ويؤكد القول أن النار اسم عام. كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [المائدة: ٨٦]، ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة: ١١]، ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ [الهمزة: ٦]، ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الجاثية: ٧]، ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢]، ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

وفي كلٍّ وجدنا احتواء النار على دركات مختلفة وأصناف متباينة وألوان شتى من العذاب مثل (سقر - السعير - الجحيم - جهنم) إلى غير ذلك مما سوف نتعرض له في القادم إن شاء الله.

وهنا يجب القول في الكفر للتعريف بأعداء الله.

الكفر والنكران والجحود واحدٌ.

قولنا: كفر الرجل، كفرًا، وكفرانًا، فقد إيمانه، ويقال كفر بالله، وفي القرآن الكريم: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨]. ويقال: كفر بنعمة الله، وكفر بالأمر تبرأً منه، ومن ذلك، (الكافر)، من لا يؤمن بالله. (جمع) كفار، وكفرة.

وفيه تجد الذين كفروا بوحدانية الله تعالى وكذبوا بآياته ودلائل قدرته على البعث والنشر والحساب وإقامة الميزان والثواب بالجنة والعقاب بالنار ﴿**أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التغابن : ١٠].

أما التأكيد على سوء المنقلب والمصير السَّيِّئ مما لا تميل النفس إلى حصوله إنما قصدت به التنبيه على ما سوف ينتهي إليه الحال ويؤول إليه المآل، حتى يتحرك الساكن وينشط الراكن، فيتدبر الإنسان ما حوله من آيات الله والحكمة من قبل أن يأتي يوم قال تعالى فيه: ﴿**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ**﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وذكر سبحانه وعيده لأهل الكفر في غير موضع كقوله تعالى:

﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [المجادلة: ٤].

﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [المجادلة: ٥].

﴿**وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٨].

﴿**إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا**﴾ [النساء: ١٠٢].

﴿**وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾ الشورى: ٢٦].

﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [الحج: ٥٧].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ نعت الكفرة ❑ ● ❑

أ ـ قال تعالى:

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ١٢].

الملاحظ أن الله تعالى خص الذين كفروا بالذكر ولم يتعرض للمؤمنين مع أن الله تعالى أوجب حق التمتع بالدنيا وطيباتها للمؤمنين كذلك حين قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ [القصص: ٧٧].

وذلك لأن المؤمن يستدل بالمأكول على خالقه، كما أنه يأكل ليقوى على عمل الصالحات وإتيان التكليفات بما يصلح أمره في الدنيا ويجعله من الفائزين في الآخرة وهو حين يأكل يُعْمِل قول الرسول ﷺ: «**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع**».

أما الكافر فإنه يأكل كما تأكل الأنعام ليسمن ويصير بها الحال إلى الذبح والهلاك ـ وكذلك حال الكافر ﴿ **وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ١٢].

والأنعام تأكل في خير الله وهي غافلة هانئة لا تستدل على خالقها بمأكولها.

وحقيقة الكلام أنه ينبئ ذا البال عن حقيقة الحال.

إن هؤلاء القوم من الناس: (الذين كفروا وأكلوا كما تأكل الأنعام وماتوا

وهم كفار ـ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ـ إذ ليس لهم حظ من رضوان الله ومغفرته لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ [محمد: ٣٤].

وطالما كان هذا حالهم كما بينه الله تعالى ابتداء من التمتع بالحياة الدنيا وانتهاء بحرمانهم من رحمة الله ﴿**فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٨، ٩].

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٦].

الكفر: سبق القول فيه.

أما التكذيب: فإنه الإهمال والإعراض. والاستكبار: هو طلب الترفع بالباطل فوق الأحكام العامة التي تنجي من النار وتفضي إلى الجنة. إذ إنهم يكذبون دائمًا بالدلائل الدالة على المسائل التي هي أصول الدين ورأس العقيدة: فالعلمانية والدهرية ينكرون دلائل إثبات الذات الإلهية والصفات العلوية، والمشركون وعبدة الطاغوت ينكرون دلائل التوحيد وينفون الوحدانية.

ومنكرو النبوات، يكذبون بالدلائل الدالة على صحة النبوات.

ومنكرو نبوة الرسول ﷺ ينكرون دلائل صحة نبوته ورسالته وما جاء به. ومنكرو المعاد والحشر والنشر ينكرون دلائل صحة المعاد، وحصول الحشر، وإمكان النشر.

ولإتمام كلامه تعالى في وعيد الكفار وهم أهل التكذيب والاستكبار قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١].

وها هم وقد وصفهم الله جل وعلا، بأربع صفات عظيمة، ينقطع معها كل رجاء في رحمة الله، تلك هي: (التكذيب، الاستكبار، والإجرام، والظلم) واعلم بأن الولوج والدخول واحد. وضرب المثل بالجمل لأنه المشهور بجسمه الذي هو من أعظم الأجسام.

وفي اللغة: السَمّ بفتح السين، هو ثقب الإبرة.

ومفاده أن الجمل أعظم الأجسام وثقب الإبرة أضيق المنافذ، فكان دخول الجمل في هذا الثقب محال، ومعناه أن دخولهم الجنة ميؤوس منه قطعًا، ثم بين تعالى أنهم يدخلون النار في درك جهنم **﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾**.

قال السدي: في قوله تعالى: **﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾**. أي: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء وتفتح لأرواح المؤمنين[1]

قال الأزهري: أصل المهد في اللغة الفرش، يقال: للفراش مهاد لمواتاته، والغواش: جمع غاشية وهي كل ما يغشاك - أي - يُجلِّلَكَ.

قال المفسرون: المراد من هذه الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب فلهم منها غطاء ووطاء وفراش ولحاف.

أما قوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الذين أشركوا بالله واتخذوا من دونه إلهًا؛ وعلى هذا التقدير فالظالمون هم الكافرون[2].

بهذا يمكن القول أن من وصفهم الله تعالى بالصفات الأربع السابقة هؤلاء قد غرتهم الحياة الدنيا فاشتغلوا بها طمعًا في زينتها واشتهاءً لنسائها وجمعًا

(١) مفاتيح الغيب (٧/ ٦٨).

(٢) المصدر ذاته (صـ ٧١)

لأموالها واجتماعًا على كأسها وحبًا لسعادتها ورغبة في ملذاتها - جُلّ اهتماماتهم التمتع بها والاستمتاع معــها - وقد غرهم بالله الغرور. فاتخذوا الباطل أولياء من دون الله ﴿ **وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا** ﴾ [النساء: ٣٨].

فاستحبوا الظلمات على النور، والضلالة على الهدى ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ** ﴾ [البقرة: ١٧٥].

فكان قول الملك الديان وحكم الحكم اللطيف: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ** ﴾ [هود: ١٥].

إنهم المتكالبون علــى الدنيا المعرضون عن الآخــرة، فليس لهم فيهــا إلا ما شاء الله أن يصلهم منها نظير قوله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ** ﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿ **وَمَن كَــانَ يُرِيدُ حَــرْثَ الدُّنْيَــا نُؤْتِهِ مِنْهَــا وَمَــا لَهُ فِي الآخِــرَةِ مِن نَّصِــيبٍ** ﴾ [الشورى: ٢٠].

وهو ما يعني أن ما يفــعله هؤلاء من خير يعود إليهم بالخــير في الدنيا من دون كفر أو بخس لقوله تعالى: ﴿ **نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ** ﴾ [هود: ١٥].

أي أن الذين يريدون بفــعل الخــير الذي يأتونه لأجل الــثناء في الدنيا كــأن يصل بالمنفعــة إلى الحيوان ومن ذلك مثــلاً ما يفعلونه من إقــامة جمعــيات الرفق بالحيوان أو الــطير وما يصدر عنهم من تعــبيد الطرق وتسويتــها ورصفهــا وإقامة المشروعات العملاقة من بناء القناطر والسدود للحيلولة دون إهدار المياه للاستفادة منها ولتحــقيق أقصى غاية في تنويع الزراعات والتــوسع فيها رأسيًا وأفــقيًا - وما يأتونه من صدقــات جارية مــثل بناء المستشــفيات والمدارس ومــا يكون منهم في صلات الأرحام وإقامة جمعيات رعــاية المسنين فتلك كلها أسباب تصل الخيرات

وتحصل المنافع إلى المحتاجين بسببها ـ إذ إنها طاعات تصدر عنهم ولكن لا خلاق لهم عليها في الآخرة ـ لأن ما صدر عنهم وما كان منهم لم يكن لوجه الله وابتغاء لمرضاته ـ إنما حبًا في الشهرة والدنيا والثناء عليهم وتمجيدهم بصناعة التماثيل التي تخلدهم أو تخلد ذكراهم ـ حسب زعمهم ـ أولئك ﴿**لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ بسبب أن مالهم من توفية أجور تلك الأعمال، من ثواب عنها فإنه يصل إليهم حال كونهم في دار الدنيا، فإن خرجوا من الدنيا لم يبق لهم من تلك الأعمال ولا من آثار ما استحقوا خيرًا عنها . فليس لهم جزاء في الآخرة إلا النار.

ولقد بين الرسول ﷺ هذه الحقيقة حتى لا يغتر أحد بفعلته وذلك حين قوله ﷺ: «**تعوذوا بالله من جُبِّ الحَزَن**» قيل: وما جُبُّ الحَزَن؟ قال ﷺ: «**واد في جهنم يلقى فيه القراء المراءون**».

وفي آخر قال ﷺ: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيرًا ولا خير فيه**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا كانت القيامة يدعى برجل جمع القرآن، فيقال له: ما عملت فيه؟ فيقول: يا رب قمت به آناء الليل والنهار ـ فيقول الله تعالى: قد كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارئ وقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: أوسع عليك فماذا عملت فيما آتيتك؟ فيقول : وصلت الرحم وتصدقت، فيقول الله تعالى: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان جواد وقد قيل ذلك، ويؤتى بمن قتل في سبيل الله فيقول: قاتلت في الجهاد حتى قتلت فيقول الله تعالى: كذبت بل أرد أن يقال فلان جريء**» ...

قال أبو هريرة رضي الله عنه ثم ضرب رسول الله ﷺ ركبتي وقال : «**يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول الخلق تسعر بهم النار يوم القيامة**».

وروي أن أبا هريرة رضي الله عنه روى هـذا الحديث عـن معـاوية. قـال الراوي فـبكى أي (أبو هريرة) حـتى ظننا أنه هالـك ثم أفاق وقـال: صـدق الله ورسـولـه ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا** ... ﴾ [هود: ١٥]

وإنه وفاء من غير بخس عما قدمـوا وأجر من دون جور بما استحقوا جزاء صنيعهم، وفي الآخرة حبطت أعمالهم وبطلت وكانوا كما قال تعالى: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [هود: ١٦].

❑ ● ❑

جـ- أكلوا الربا:

قال تعالى:

﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قـوله تعـالى ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ [البـقرة: ٢٧٦] فـيه مقابلةومناسبة بين الربا والصدقة من جهة التضاد.

فالربا: هو طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه.

والصدقة: هو تنقيص المال عن رضا تنفيذًا لأمر الله بذلك.

وأصل الربا في اللغـة: الزيادة - كـأن يقـال: ربا الشيء يربو - ومنه قـوله تعالى: ﴿ **اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ [الحج: ٥].

فالمراد من قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ الذين يعاملون به وفيه تنبيه على أن الله تعالى منع من التصرف في الربا، كما ذكرنا من الوعيد ومن ذلك ما قال الرسول ﷺ **«لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه والمحلل له»**.

ومنه يستدل على أن أكل الربا هو التصرف فيه والتعامل عليه، أما قوله تعالى: ﴿ **لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ** ﴾ وتخبطه الشيطان: إذا مسه بخبل أو جنون.

ويقال: به خبطة من جنون، والخبل: خبطة.

والمس: جنون: إلا أن المس باليد، والتخبط بالرجل.

فكأن الشيطان يمسه ويتخبطه ويطؤه برجله فيخبله، وذلك هو الشيطان حين يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله. ذلك هو المس استنادًا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ومن ذلك أن الشيطان يجره إلى النفس والهوى ـ والملك يجره إلى الدين والتقوى والطاعات ومن كان كذلك كان متخبطًا في الدنيا، فهذا هو الخبط الحاصل بفعل الشيطان.

واعلم أن ليس للشيطان إلى المتقين المحسنين من سبيل ـ إلا أنه يسول لهم بالتزين وحديث النفس وهو المقصود من قوله تعالى ﴿ **مَسَّهُمْ طَائِفٌ** ﴾ فإذا كان ذلك فإنهم يتوبون إلى الله متابًا ويستغفرونه جل وعلا عما حدثتهم أنفسهم استغفارًا، إلا أن الخبط والمشي لا يكون إلا في الذين يأكلون الربا على نحو ما بيناه ـ والله تعالى أعلى وأعلم.

وقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** ﴾.

قالوا: أن من اشترى ثوبًا بعشرة ثم باعه بأحد عشر فهذا حلال. فإذا باع أحدٌ العشرةَ بأحدَ عشرَ يجب أن يكون حلالاً، لأنه عندهم لا فرق في العقل بين الأمرين وقد نسي هؤلاء أن الدين بالنص لا يقاس.

كما كان من إبليس إذ حكى الله عنه ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [ص: ٧٦].

فالثابت أن امتناع إبليس عن السجود لآدم، للقياس الذي اعتمل في عقل إبليس عن السجود لله لم يمنع لعنة الله من الوصول إليه وخروجه ورجمه من الجنة، وهو منظور إلى يوم الوقت المعلوم.

منه يستفاد أن الدين بالنص لا يقاس، والقياس لا يكون إلا في الأحكام ودليلنا أن القياس الذي أعمله إبليس لن ينجيه من عذاب الله في الآخرة، حيث قال تعالى: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [ص: ٧٦].

وأكثر المفسرين قد اتفقوا على أن كلام الكفار قد انقطع عند قوله تعالى ﴿**إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا**﴾، وأما قوله تعالى: ﴿**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾ فهذا كلامه تعالى، ونصه سبحانه على أن هذا الفرق يعد إبطالاً ودحرًا لقول الكفار: ﴿**إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا**﴾. والبيع يقابله الشراء وهما طرفا التجارة وهي معاوضة (مبادلة) الشيء بالشيء عن رضا وقبول لقوله تعالى: ﴿**لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ**﴾ [النساء: ٢٩].

إلا: ها هنا: استثناء منقطع بمعنى (بل).

ثم قال تعالى ﴿**فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ**﴾ وقرأ: أُبَيٌّ والحسن «**فمن جاءته موعظة من ربه**» على التأنيث، وفي الأولى تأنيثها غير حقيقي (مجازي) على معنى (الوعظ).

قوله تعالى: ﴿**فَانتَهَى**﴾: أي فامتنع وتوقف.

﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾: أي فله ما تقدم قبل الموعظة. وهو ما تحقق حصوله بالفعل، من أكل الربا (طلب الزيادة) وانتهى كذلك عن قوله ﴿**إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا**﴾، فالإسلام يجب ما قبله نظير قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: لمن ترك استحلال الربا، وتاب من قريب، فإنه يرجي لأمر الله ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨]

﴿وَمَنْ عَادَ﴾: أي من عاد إلى استحلال الربا من بعد ما جاءه موعظة من ربه، ﴿**فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾. وفيه إفادة بأن الخلود في النار لا يكون إلا للكافر على سبيل الحصر بأن كل الكفار في جهنم مع المنافقين والمشركين والعصاة والطاغين ـ وفيه كذلك ما مفاده القصر على أن الخلود في النار لا يصح لغير الكافرين، وذلك لأن أهل الإيمان يرجى لهم الخروج من النار لأن العفو من العفو كائن.

حيث حدثنا إسماعيل قال: حدثنا مالك عن عمرو بن يحيي المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون في نهر الحيا ـ أو الحياة ـ فينبتون كما تنبت الحبة من جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية**»(١).

وحدثنا محمد بن نافع، حدثنا أبو داود عن مبارك بن فضالة عن عبيد الله ابن أبي بكر بن أنس عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله: أخرجوا من النار من ذكرني يومًا أو خافني في مقام**»(٢).

(١) رواه البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب تفاضل أهل الإيمان في الأفعال حديث (٢٢).
(٢) رواه الترمذي، كتاب صفة جهنم، حديث (٢٥٩٤).

ثانيًا: أولو الكسب السيئ

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

يقول أهل اللغة: أن بلى إثبات لما بعد حرف النفي وبهذا أيضًا قال صاحب الكشاف (جار الله الزمخشري):

واعلم بأن السيئة تتناول جميع المعاصي والآثام، وما لها من لقاء إلا سيئة مثلها لقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وعلى ذلك جاز لنا القول بأن من كسب السيئة صغرت أم كبرت لا ريب أن فاعلها في النار، أما الذي يستحق الخلود من أحاطت به سيئاته من كل اتجاه بحيث لا يستطيع التخلص منها كإحاطة العدو بالفرد الأسير من كل جانب. يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣]. ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

ولأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا فإننا نستدل على استيضاح ما نرجو من معنى ونقرر حقيقته بقراءتنا لقوله سبحانه: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ويشرح لنا المعصوم الكريم صلوات ربي وسلامه عليه في غير حديث بما لا يدع واحدًا من المعاني إلا وقد وضحه وشرحه.

فقد روىٰ وقاص بن ربيعة عن المسور بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أكل بأخيه أكلة أطعمه الله من نار جهنم، ومن أخذ من أخيه كسوة كساه الله من نار جهنم،ومن قام مقام رياء وسمعة أقامه [1] الله يوم القيامة مقام رياء وسمعة»**.

وعنه أيضًا قوله عن النبي ﷺ أنه قال: **«من كان ذا وجهين كان في النار ذا وجهين وذا لسانين»**. وهذا في المنافق.

وعن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ظلم قيد شبر من أرض طوقه الله يوم القيامه من سبع أراضين»**، وهذا في اغتصاب الأراضي .

وعن ثابت بن الضحاك قال: قال ﷺ: **«من حلف بملة سوىٰ الإسلام كاذبًا متعمدًا فهو كما قال ومن قتل نفسه بشيء يعذب به في نار جهنم»**

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال ﷺ: **«من لقي الله مدمن خمر؛ لقيه كعابد وثن»**.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: **«من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه في جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تردىٰ من جبل متعمدًا فقتل نفسه فهو متردٍ في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن احتسىٰ سمًا فسمه في يده يحتسيه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»**.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«من تعلم علمًا يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»**.

---

(١) أقامه: أي جازاه علىٰ ذلك ـ وهذا «نص» في وعيد الفاسق.

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**»، قلت: يا رسول الله من هم خابوا وخسروا؟ قال: «**المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف كاذبًا**»، والمسبل هو المتكبر الذي يسبل إزاره.

وعن أبي هريرة قوله عن رسول الله ﷺ: «**من كتم علمًا ألجم بلجام من نار يوم القيامة**».

وروي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قوله: «**من حلف على يمين فاجرة ليقطع بها مالاً غير حقه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار**»، قيل: يا رسول الله وإن كان شيئًا يسيرًا؟ قال: «**وإن كان قضيبًا من أراك**».

وروى ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من صور**[1] **فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيه الروح وليس بنافخ، ومن استمع إلى حديث قوم يفرون منه صب في أذنيه الآنك، ومن يرى عينيه في المنام مالم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين**».

عن معقل بن يسار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد يسترعيه الله رعيته يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**».

وعن ابن عمر في مناظرته مع عثمان حين أراد أن يوليه القضاء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان قاضيًا يقضي بالجهل كان من أهل النار ومن كان قاضيًا يقضي بالجور كان من أهل النار**».

وعنه ﷺ أنه قال: «**من ادعى أبًا في الإسلام وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام**».

(١) المقصود: المثالون.

وعن الحسن عن أبي بكرة قال: قال ﷺ: «**من قتل نفسًا معاهدًا لم يرح رائحة الجنة**».

وعن نافع مولى رسول الله ﷺ قال: قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة مسكين متكبر ولاشيخ زان ولا منان على الله بعلمه**».

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن الله خلق الرحم فلما فرغ من خلقه قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فهو ذاك**»، قال رسول الله ﷺ: **فاقرءوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾** [محمد: ٢٢، ٢٣]».

وعن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق السِّحْر**».

وروي عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: «**ما من عبد له مال لا يؤدي زكاته إلا جمع الله له يوم القيامة عليه صفائح من نار جهنم يكوي بها جبهته وظهره حتى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون**»[1].

الحاصل فيما تقدم اجتماع الفسق والنفاق والتكبر وقطيعة الرحم والظلم مع الكفر سواء بسواء.

أما الاستغراق في الوعيد مقصور على الكافرين لقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾** [البقرة: ٦].

لأن غير ذلك من العصاة السابق القول فيهم ـ فهم مرجون لأمر الله بعد

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢ ـ صـ ٢٠٩.

التوبة من قريب والانتهاء عن الكسب السيئ بعدم الاقتراب مما نهى الله عنه لقوله تعـالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧].

فإذا أحدث العـصاة توبة عن معاصـيهم تجنبوا القياس والجـمع بالكافرين، ووجبت لهم النجاة من سوء المصـير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٧].

ومنه نتبين أن الكسب السيئ يحيط بالخطايا فيكب مكتسبيها على وجوههم في النار جزاء بما عملوا ليكون قوله تعالى الحق ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وذلك ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبأ: ٣٦] - أي - كافيًا ليدوم بهم الحال ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [فاطر: ٣٩].

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٥، ١٦].

❑ ● ❑

ثالثًا: تخريب المساجد

قال تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ [البقرة: ١١٤].

ورد في أسباب نزول الآية الكريمة كلام كثير واختلف المفسرون في بيان ما اختلفوا فيه.

وعندي فالأهم بمقدار أن من منع عمارة المساجد وسعى في خرابها ـ هم دخول في عموم اللفظ بالكلية سواء من المشركين أو الكافرين أو الكذابين أو الفاسقين والمنافقين من المارقين الخارجين على الدين، وقد جازاهم الله تعالى بما نصَّ عليه في الآية الكريمة.

وفي اللغة: الخزي، الخزي واحد، وهو الذل والهوان (جمع) المخازي.

وتقول: خزا فلانًا ـ خَزَوًا: ساسه وقهره.

خزي ـ خزي ـ وخزيه: وقع في بلية وشر وافتضح.

ومنه أخزاه: أهانه، وأخجله ـ ذلك حظه في الدنيا، و﴿ في الآخرة عذاب عظيم ﴾.

وظاهر المعنى في صدر الآية يقتضي أن يكون الساعي في تخريب المساجد أسوأ حالاً من المشرك؛ لأن قوله تعالى: ﴿ ومن أظلم ﴾ يتناول المشرك ضمنًا لأنه تعالى قال: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان: ١٣].

وفيه يكون الساعي في أَحَطِّ درجات الفسق والكيد والخيانة ﴿ وأن الله لا

يَهْدي كَيْدَ الْخَائنينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ﴿وَاللَّهُ لا يُحبُّ الْمُفْسدينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

إلا أنه ثمة فارق بين المساجد والبيوت (بيوت الله)، فالمساجد لفظ يشمل كل مواضع السجود حيث نقول: (مصلى العمل ـ مصلى المنزل) ـ (مصلى بني فلان)، ثم الصلاة في شتى بقاع الأرض ـ إذ إن كل مكان يصح أن تسجد فيه (لله) فهو مسجد لقوله ﷺ: **«جعلت لي الأرض مسجدًا وتربتها طهورًا»**، فرسول الله ﷺ كان يصلي في مرابض الغنم قبل أن يبني المسجد[1].

بذلك يقتضي الحال وجوب السجود لله طوعًا وكرهًا لاقتضاء العقل بذلك فالسجود لا يكون إلا لله، في أي موضع للسجود (مسجد) طاهر يصح فيه طالما كان جافًا لقوله ﷺ: **«كل جاف طاهر ولو كان من خشاش الأرض»**.

بذلك يكون السجود بين يدي الحاكم وجب الانتهاء عنه وزجره ـ حتى وإن كان من العادات الاجتماعية المتأصلة بحسب الثقافات المتباينة ـ خشية الانحراف إلى عبادة البشر من دون الله ـ ثم تقديس وتمجيد المعبودين من البشر فتعود عبادة الأوثان ـ كما هو الحال في الهند لتقديس إلههم المزعوم (رام) وفي الإقليم الشرقي النيجيري، وفي الجنوب التشادي، حيث تنتشر عبادة أرواح الأجداد والظواهر الطبيعية[2].

بهذا يلزم صيانة مواضع السجود (المصلى) وتطهيرها، والأمر عام يتناول طهارة الماديات إلى طهارة الحس الروحانيات.

ولا حرج أن يقال: (مسجد بني فلان) ـ لما حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل

(١) انظر الحديث رقم ٤٢٩ صـ ٢٧٤ كتاب الصلاة ج ٢ فتح الباري.

(٢) سيرد في ذلك كلام في القادم إن شاء الله تعالى.

التي أضمرت من الحفياء ومداها ثنية الوداع، وسابق الخيل التي لم تضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق، وأن عبد الله بن عمر كان فيمن سابق بها[1].

وفيه جواز إضافة أعمال البر إلى أربابها وإضافة بناء المساجد إلى بانيها الأصلي أو المصلى فيها.

وإذا قلنا عن البيوت: فهي المساجد على وجوب التخصيص تقييدًا للمعنى لقوله ﷺ: «**من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة**».رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم لقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ [الحج: ٢٦].

❑ ● ❑

ولكن كيف يكون التخريب؟

قال الحسن: قال ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم في أمر الدنيا لا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة**».

روي عن أبي هريرة قوله قال ﷺ: «**إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحيتهم لعنة وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، لا يقربون المساجد إلا هجرًا ولا الصلوات إلا دبرًا، لا يتألفون ولا يألفون، خشب بالليل، سحب بالنهار**».

---

(١) فتح الباري. كتاب الصلاة حديث ٤٢٠ صـ ٢٥٦ ج ٢.

روي أن عمر أمر ببناء مسجد وقال للبناء: أكن الناس من المطر وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس.

وروي أن عثمان رأى أترجة[1] من جص[2] معلقة في المسجد فأمر بها فقطعت. قال أبو الدرداء: إن حليتم مصاحفكم وزينتم مساجدكم فالدمار عليكم.

قال أنس بن مالك: إن رسول الله ﷺ قال: «**سيأتي على أمتي زمان يتباهون في المساجد ولا يعمرونها إلا قليلاً**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**من سمع رجلاً ينشد ضالته في المسجد فليقل: لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا**».

وعنه أيضًا عن النبي ﷺ قوله: «**إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك**».

يدخل في ذلك كل أمر لم يبن له المسجد بما في ذلك معاملات الناس واقتضاء الحقوق.

وقال معاذ بن جبل: إن المساجد طهرت من خمس:

من أن يقام فيها الحدود، أو يقبض فيها الخراج، أو ينطق فيها بالأشعار، أو ينشد فيها الضالة، أو تتخذ سوقًا.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها**».

---

(١) ترّج الثوب: صبغه بالحمرة صبغًا مشبعًا.

(٢) جصص البناء: طلاه بالجير: الجص ما تطلى به البيوت والمراد التزيين.

وفي الحديث: «**إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة في النار**» ـ أي ـ (ينضم وينقبض)، وقال آخرون: (أراد أهل المسجد) وهم الملائكة.

وفي الصحيحين: عن أنس وابن عمر وجابر أن رسول **الله** ﷺ أشار إلى البصل والثوم وقال: «**من أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس**».

وفي الصحيحين: عن عباد بن تميم عن عمه أنه رأى رسول **الله** ﷺ مستلقيًا في المسجد واضعًا إحدى رجليه على الأخرى.

وعن ابن شهاب قال: كان ذلك من عمر وعثمان.

وفيه جواز الاتكاء والاضطجاع والاستراحة كما تكون في البيوت ـ عدا ـ الانبطاح ـ لأنه ﷺ: نهى عنه وقال: «**إنها ضجعة يبغضها الله**».

وقال ابن عباس رضي **الله** عنهما: لا تتخذوه ـ أي المسجد ـ مبيتًا أو مقيلاً.

وعندي: لأنها بيوت **الله** تقتضي التعظيم والصيانة والسمو فوق ما كان مما سبق ـ ما ظهر منه وما بطن ـ وما هو دون ذلك مما ينشأ من أمره من الالتباس أو الخفاء وأن يمنع الكافر والمشرك من دخول بيوت **الله**، وأن نقاتلهم في ذلك إن فعلوا.

وأن لا يسمح بدخول أهل الكتاب كذلك، فإن دخل الذمي المسجد من غير إذن مُسْلم عُذّر في فعلته، وإن دخل بإذن لا يُعذّر.

ووقع اختلاف من الفقهاء في دخول الكافر المسجد، حيث جوزه أبو حنيفة مطلقًا. وقال الشافعي رضي **الله** عنه: يمنع من دخول (الحرم والمسجد الحرام): محتجًا لذلك بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ**

عامهم هذا ﴾ [التوبة: ٢٨].

قال الشافعي: قد يكون المراد من المسجد الحرام الحرم لقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ [الإسراء: ١]. وإنما أسري به من بيت خديجة، فالآية دالة إما على المسجد فقط أو على الحرم كله.

واختلف مع ما قال به الشافعي رضي الله عنه لأن المانع من قربهم من المسجد الحرام نجاستهم: وذلك يقتضي وجوبًا أنهم ما داموا مشركين كانوا ممنوعين عن المسجد الحرام الذي هو قبلة كل المساجد، وقد قلنا: إن المساجد هي (بيوت الله تخصيصًا). ﴿ **أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا** ﴾ [البقرة: ١١٤] أي يمنعوا من الدخول فما يكون من منع دخولهم المسجد الحرام يتناول بالمنع كذلك من دخولهم كل بيوت الله في أرض الله، وذلك نظير قوله: ﴿ **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ [الحج: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** ﴾ [التوبة: ٢٨]، والثابت أن تطهير النجاسات واجب، ومن ثمَّ فإن تبعيد الكفار عن المساجد أولى بالوجوب.

الجزء الثاني

من أسباب العذاب

الأول: بسبب الكف عن عمارة المساجد:

قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ**﴾ [التوبة: ١٧].

العمارة في اللغة: نقض الخراب وتدل على معنيين.

الأول: يدل على لزومها وكثرة إتيانها.

الثاني: فن تشييد المنازل ونحوها وتزيينها وفق قواعد معينة.

وقد أشارت الآية الكريمة صراحة إلى منع دخول المشركين المساجد، وكذلك النهي عن ذلك على الإطلاق ـ لأن دخولهم تلويث لها، فالمشركون والكفار لا يحترزون من النجاسات التي تؤدي قطعًا إلى فساد عبادة المسلمين لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ [التوبة: ٢٨]. كما قضى الله تعالى بوجوب تطهير المساجد ﴿**أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ [البقرة: ١٢٥].

إلى جانب كونهم (نجسًا) فقد أقروا بعبادتهم للأوثان من دون الله وكذبوا بما أنزل على محمد ﷺ من الحق (القرآن الكريم) وأنكروا نبوته ﷺ ونطقت

ألسنتهم بالكفر بما جاء من الحق - وإن لم تقع منهم شهادة بأنهم كافرون. يدل على ذلك أن عبدة الأوثان يقولون: إنهم وثنيون وإن خاطبتهم بأن ذلك شرك يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ كل أعمالهم - وإن كانت حسنة مثل بر الوالدين وإكرام الضيف وإطعام الجائع وما يصدر عنهم من شتى أنواع الخير.

فالعقاب الواجب على الكفر جزاء له زائد على ما لهم من لقاء حسن أعمالهم من الثواب - إذ إن ذنب الكفر أعظم وعقوبته أشد لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥]، وفي النار هم خالدون، وهو قول يفيد الحصر إشارة إلى كونهم خالدين في النار لا غيرهم، فالخلود لا يحصل إلا للكافر جزاء على كفره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ﴾ [الروم: ١٠].

❑ ● ❑

الثاني: بسبب نسيان الله:

قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ليس المراد بنسيان الله هنا هو النسيان على إطلاقه فالكل يشهد على المخلوقات بأنها لها خالق نظير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

فالمراد أنهم نسوا حق الله في كل ما أمر به أو نهي عنه من كافة أنواع العبادات والطاعات واجتناب المعاصي والمنهيات - فأنساهم الله حق أنفسهم حتى لا يسعوا لها بما ينفعهم عند لقائه تعالى حيث ينسيهم كذلك أنفسهم، لما يشتغل به من هول يوم اللقاء وقد صور الله تعالى شيئًا من حالهم يومئذ عند قوله تعالى حكاية عنهم ﴿ **لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ** ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٦٩].

❑ ● ❑

الثالث: بسبب الكفر بالآخرة:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ** ﴾ [النمل: ٤، ٥].

وفيه أن أهل الكفر والشرك ينتظرهم سوء العذاب (وهو عام مطلق) طريقهم إليه ما زين لهم من سوء أعمالهم فرأوه حسنًا وواجبًا وحميد العاقبة، إنهم ينحرفون عن طريق الإيمان إلى طريق الضلال ويتحيدون ويترددون على طلب الهداية على الصراط المستقيم، ويعدلون [1] بين شركائهم وبين جلال الله تعالى: ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١].

﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ** ﴾ عذاب مطلق عام في الدنيا بسبب غلبة المؤمنين عليهم وقهرهم وسبيهم كما كان في يوم بدر وفوق ذلك يذيقهم الله سائر أنواع العذاب وفي الآخرة هم الأخسرون، وأخسر الخاسرين، (أفعل الفاعلين) وهو الأشد خسارة عن سائر الخاسرين لأن مرده إلى عذاب عظيم.

والتنكير يفيد التعظيم والتهويل والترويع؛ لقوله تعالى: ﴿ **نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ**

(١) يساوون

نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]. فإنه إذا عذاب لا يعرف كنهه إلا الله.

الرابع: بسبب نسيان لقاء الله:

قال تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٣، ١٤].

وفيه بيان لجنس أهل جهنم أي أنها تملأ من الجن والإنس من دون اقتضاء دخول الكل - ويجتمع معهم فيها ما اتخذوا من آلهة غير الله نظير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ﴾: يوحي بأن جهنم ضيقة تملأ بالبعض دون الكل فذوقوا العذاب، أي: ﴿فَذُوقُوا﴾ وقد ورد الكثير من أصناف العذاب وألوانه وسيرد أيضًا بما نسيتم اللقاء: لقاء يومكم هذا - واللقاء والجزاء متفقان - فما جئتم به من الذنوب قابلناه بالعقاب فما كان منكم من النسيان لاقيناه بترككم بالكلية، وتصريف الرحمة عنكم قطعًا لرجائكم. وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون.

❑ ● ❑

الخامس: بسبب البخل:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

قال المفسرون: البخل: منع الإحسان، وفي الشريعة منع الواجب.

قرأ حمزة والكسائي: البخل.

أما المختال: ذو الكبر والخيلاء وهو عام يتناول عدم الوفاء بحقوق الناس ومن ثم التطاول عليهم.

والثابت أن الله تعالى ذكر عدم حبه للذين يبخلون ثم عطف عليه نسقًا للذين يأمرون به غيرهم مع إنكارهم وكتمان ما آتاهم الله من فضله وهو وصف يوجب الكفر كون هؤلاء قد يظهر شكايتهم مع الله تعالى كأنهم يشكون الخالق لخلقه، وهم كذلك يوهمون الناس بالإعسار مع اليسار والعجز مع الإمكان والفقر مع الغنى.

ولا إشكال بالكفر ها هنا لأنه الكفر بالنعم وإن لم يأتوا كفرًا بالدين والشرع، وهو يحتمل التوسع ليشمل الكفار وغيرهم.

إنهم صاروا كفارًا بما اعتقدوا من الفكر وما سلكوا من طريق وما مارسوا من أفعال، واستوجبوا العذاب المهين لقوله تعالى: ﴿ **وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا** ﴾ [النساء: ٣٧].

❑ ● ❑

السادس: بسبب الاكتناز:

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [التوبة: ٣٤].

الثابت في الأذهان والواقع الحتمي يؤكد على أن كثرة المال وعجز الجاه مع ضعف الدين، كله يورث الطغيان الذي يقضي به إلى الخذلان والخسران ويمنعهم رضوان الإله الرحمن.

ومن أضحى هكذا أمسى بخيلاً مستغنيًا عن الخير الوفير بما له من القليل الحقد وتيسير أمره للتردي في الهلاك.

﴿ **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ** ﴾ [الليل: ٨ ـ ١١].

فهذا شأن من بخل واستغنى وكذب. ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، واعلم بأن كل مـاله ـ أي كل ما ملك ـ من متاع الدنيا لا يغني عنه شيئًا عن ترديه في الهلاك في نار جهنم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

والجزاء من جنس العمـل لما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

❑ ● ❑

السابع: بسبب الإعراض عن الذكر:

قال تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ [طه: ١٠١].

إنه النور والفرقـان والقرآن الحكيم والآيات البينات والكتـاب المبين وسمي (ذكر) لأنه شـرف للرسول ﷺ وللـقوم الذي أرسل فـيهم ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وتلك نعمة عظيمـة ومنة كبيرة بينها الله تعالى وبين معهـا شدة الوعيد لمن أعرض عن هذا الذكر الذي له وعيـد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ وهو العقوبة الثقيلة، ومساءلة يوم القيامة حملا: أي أن هذا الوزر حمل سـيئ يشق عليهم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧].

❑ ● ❑

الثامن: بسبب الإسراف:

قال قتادة: يعني المشركين. وقال مجاهد: السفاكين للدماء.

وعندي: الإسراف لفظ عام يكون من المشركين والكافرين والمؤمنين على السواء لقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٥٣].

وحسب هؤلاء تشريفًا أن الله تعالى نسبهم لذاته بياء النسب الواردة في قوله تعالى: ﴿**يَا عِبَادِيَ**﴾، ودلالته أن الإسراف ذنب يقع من المؤمنين كما يقع من غيرهم - وإحداث التوبة وإدراك الإنابة من الإسراف ينجيان من النار فإن أصر على معصيته صار مرجي لأمر الله إن شاء عذب وإن شاء غفر أو إن شاء أخرج من النار وإن شاء أبقى.

❏ ● ❏

التاسع: بسبب الظهار:

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [المجادلة: ٣، ٤].

❏ ● ❏

العاشر: بسبب ما يحادون

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ**[1] **اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**

---

(١) يعادون ويشاقون.

وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥].

❏ ● ❏

الحادي عشر: بسبب النجوى

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

❏ ● ❏

الثاني عشر: بسبب الاقران

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

❏ ● ❏

الثالث عشر: بسبب خفة الموازين

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨ - ١١].

أي قلت حسناته فرجحت كفة السيئات على الحسنات.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾: ذكر الأخفش، والكلبي وقتادة قالوا: لأنهم يهوون في النار على رؤوسهم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾: للتهويل والتقريع والتخويف منها.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾: يدل على أنها شديدة الحرارة والسخونة عما عداها من النار الأخرى.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ* تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣، ١٠٤].

❑ ● ❑

الرابع عشر: بسبب الشقاء:

قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١١، ١٣].

﴿الأَشْقَى﴾: المعاند الذي يتكبر على التذكرة بالدعوة ولو سمع ما استجاب لها، نظير قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، والنار الكبرى هي نار لظى لقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤، ١٥].

﴿تَلَظَّى﴾: توهج، وتلهب، وتتوقد.

﴿النَّارَ الْكُبْرَى﴾: ورد في النار غير تعريف حيث قال تعالى: ﴿نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]، ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١١]، ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣]، ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦]، ويحتمل عندي أن هذه أسماء لمواضع (دركات) في النار تتنوع طبقًا لمستحقيها، ومن ذلك: أن الأشقى سيدخل النار الكبرى، بينما من خفت موازينه فهو في نار حامية.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧].

موعدهم النار لهم فيها زفير وشهيق.

قال بعضهم: الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق، وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار[1].

وقوله تعالى: ﴿**لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ**﴾ يدل دلالة مباشرة على أن عذاب أهل النار يتنوع ويتباين، لأن من عبد غير الله أو أشرك به سبحانه جمعهم الجبار جميعًا في جهنم، وليس لهم فيها إلا الزفير، لما قال تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠].

سيرد في ذلك لاحقًا إن شاء الله.

❑ ● ❑

الخامس عشر: بسبب إيذاء الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

اعلم أن وصول الأذى إلى الله محال والقول به قول كفر وأطلال كفر.

لأن الأصل في بيان ذلك هو النهي والانتهاء عن إيذاء الرسول ﷺ - إذ إن من أذى رسول الله ﷺ صار كأنه أول الأذى إلى الله تعالى؛ لأن الفوز بحب الله تعالى مرتهن بحب الرسول ﷺ لقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]، ومن ذلك فإن سخط الله تعالى وغضبه متعلق بإيصال الأذى أو إلحاقه أو الشروع في ذلك إلى النبي ﷺ.

(١) مفاتيح الغيب (صـ ٦١٨) ج (٨).

وقد أكد القرآن الكريم على ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

ثم قال تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾: أي طردهم من رحمته واستحقوا عذابه في الدنيا والآخرة وهو تصريح بالبعد الذي لا يرجى للقرب معه رجاء إلا الخيبة والخسران المبين.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

❑ ● ❑

السادس عشر: بسبب إدعاء الألوهية:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

ورد في كتاب مفاتيح الغيب (ج: ١١ صـ ١١٠) الصفحة العاشرة بعد المائة الأولى.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فإنا نجازي ذلك القائل بهذا الجزاء، وهذا لا يدل على أنهم قالوا ذلك أو ما قالوه وهو قريب من قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] اهـ.

إن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾ يتناول البشر كذلك إذ أن الله تعالى قد قرر أن الملائكة الكرام قد بالغوا في الطاعة إلى حيث لا يقولون قولاً ولا يعملون عملاً إلا بأمره، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]. فأنى لأحدهم أن يقول: إنه إله من

دون الله، فلا يصح أن يقول ذلك منهم. إنما كان ذلك من بني آدم:

إذ قال فرعون لقومه يوم أن حشر الناس ليوم الزينة عند الضحى ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [النازعات: ٢٤]. قد استكبر بقوله ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال لموسى عندما دعاه إلى رب السموات والأرض وما بينهما: ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢٩]. ثم عصى وتجاوز وفجر وقال لقومه: ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾ [القصص: ٣٨] وذهب به استكباره واستعلاءه إلى محاولة الوصول إلى السماء فقال: ﴿ **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [القصص: ٣٨].

وقد قال تعالى في موضع آخر ﴿ **يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا** ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]. ﴿ **وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص: ٣٩].

وأرسل فرعون يطلب جنوده ﴿ **فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ** ﴾ [الشعراء: ٥٣ - ٥٦]، وذهبوا في طلب موسى ومن معه ﴿ **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ** ﴾ [الشعراء: ٦٠]. ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾ [الشعراء: ٦١]. فكتب الله النجاة لموسى ومن معه بعبور البحر وإغراق فرعون وجنوده ﴿ **وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ** ﴾ [الشعراء: ٦٥، ٦٦].

فقال الله تعالى عن فرعون وآله: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر: ٤٦]، هؤلاء لهم النار حال

كونهم موتى ، وفي الآخرة هم دليل لأصحاب النار ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١]، وقد كتب الله النجاة لجسمان فرعون ليكون آية لمن يخلفه في الكفر وادعاء الألوهية ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس: ٩٢]. وقال تعالى: ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤٢].

❑ ● ❑

السابع عشر: بسبب حب الدنيا:

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

سيرد لاحقًا في هذه الآية إن شاء الله تعالى.

❑ ● ❑

الثامن عشر بسبب القتل العمد:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

❑ ● ❑

التاسع عشر: بسبب النفاق:

قال تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨].

متنوعة في أسباب العذاب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٤، ١٧٥].

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ـ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].

ـ ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥، ٣٦].

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩، ٣٠].

ـ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ ـ ١٠٩].

(أ) بسبب الارتداد عن الدين:

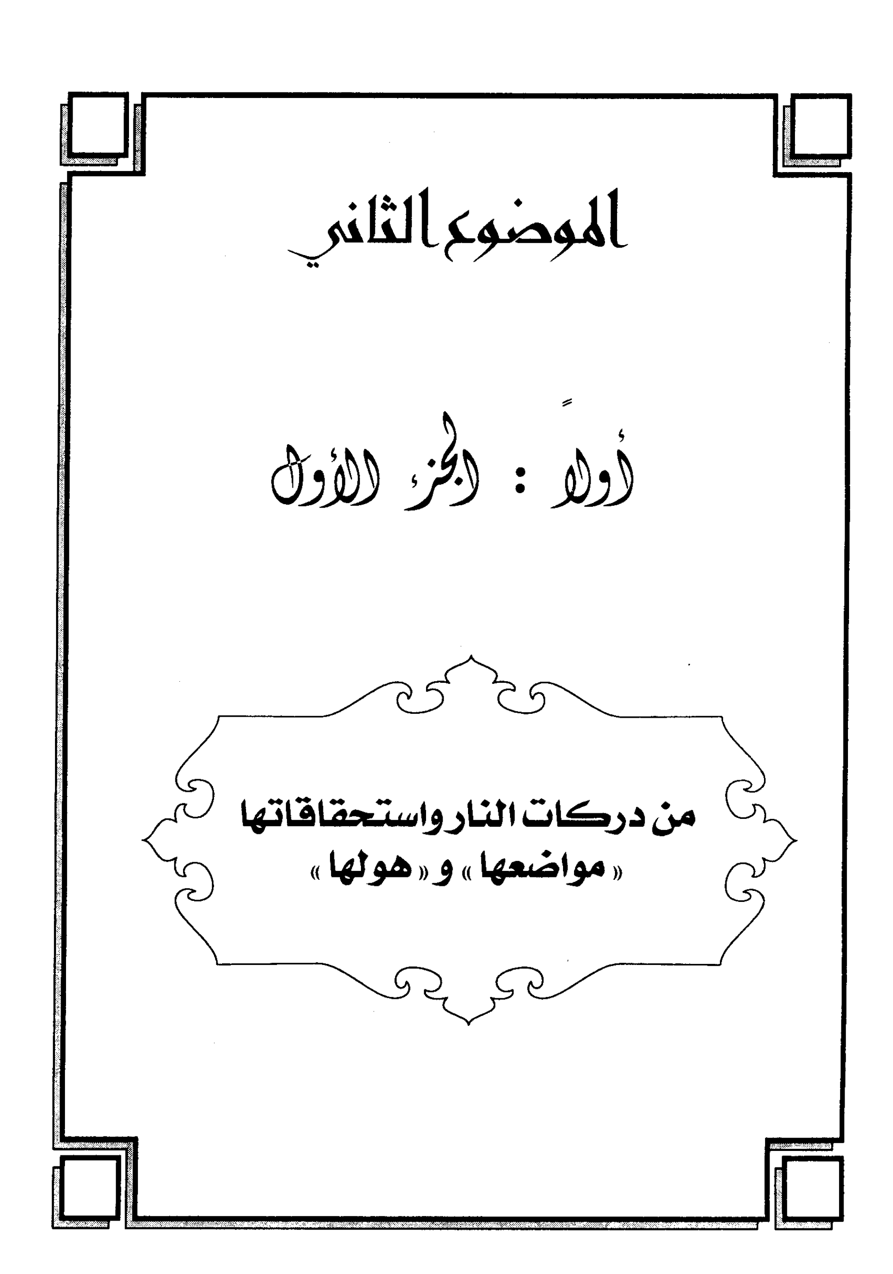
قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

❑ ● ❑

(ب) بسبب موالاة غير الله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: ١٤ ـ ١٧].

❑ ● ❑



الموضوع الثاني

أولاً : الجزء الأول

من دركات النار واستحقاقاتها
«مواضعها» و «هولها»

❑ ● ❑ الأول: النار ❑ ● ❑

سبق التعريف بالنار والقول في حـدود ما تيسر، ونحن هاهنا نتناول صوراً من عـذابها المستحق لبـعض أهلها لننظر الفـرق بين دركات النار عـمومًـا على اختلاف تسمياتها وأصناف عذابها.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ [النساء: ٥٦].

وفيـه بيان ما يعم الكافـرين من التهديد والوعـيد لما كان من وقـوعهم في الكفر، لأنهم أنكروا آيات الله فغفلوا عنها ولم ينظروا إليها، ثم إلقاءهم الشكوك والشبـهات في تلك الآيات، وإنكارها مع علمـهم بها، ويقينـهم منها كل ذلك على سبيل الحسد والعناد.

أما قوله تعالى ﴿**سَوْفَ**﴾: قال سيبويه[1]: إنها كلمة تذكر للتهديد والوعيد وينوب عنها حرف السين كقوله تعالى ﴿**سَأُصْلِيهِ**﴾ [المدثر: ٢٦]، وهذه تقال في الوعيـد، وهي ترد في الموعد أيضًـا كقـوله تعالى: ﴿ **وَلَسَـــوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾ [الضحى: ٥]، إلا أن السين أقرب استقبالاً من سوف.

- قوله تعالى: ﴿**نُصْلِيهِمْ**﴾.

اعلم أن الشـــاة المصليـة هـي المشـوية والمراد - أن (ندخلـهم النار) إلا أن استخدام كلمة نصليهم فيه زيادة بمنزلة شويته بالنار فوق كونه دخلها.

---

(١) مفاتيح الغيب (ج ٥ صـ ٢٥٤).

وسبحان القادر على إبقائهم في النار ووصول العذاب إليهم والآلام الشديدة من غير احتراق الجلد وتبديله بجلود أخرى - إلا أنه تعالى بين كنه العذاب استغراقًا في الوعيد بما يؤكده قوله تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ** ﴾ [الذاريات: ٦٠].

الثابت أن بيان كنه العذاب وكيفية الوصول بنضج الجلد واحتراقه، ثم تبديله بآخر وهكذا - وهو يدل على دوام العذاب وعدم انقطاعه، كأن يقال لمن يوصف بالمداومة كلما انتهى بدأ. أي أنه كلما ظن هؤلاء أن جلودهم نضجت واحترقت وانتهت إلى الهلاك - تصير بإرادة الله وإحداثه إلى خلق جديد تعاد عليه كرة العذاب كما كانت سابقتها.

كقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ** ﴾ [الأعلى: ١٣].

﴿**لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ ، ليدوم تذوقهم له بحيث لا ينقطع.

﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾، إنه القادر، القاهر، الغالب، الذي يفعل الصواب فيصيب به من أراد بما تقتضيه حكمته ومشيئته.

ليذوقوا العذاب، فيقع قوله تعالى: ﴿ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [المجادلة: ٤].

❏ ● ❏

النار عذاب الظالمين:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾ [الكهف: ٢٩].

فيه التقرير على تكليف المعصوم ﷺ بإبلاغ رسالة الله - كما هو كائن في قوله تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ [الكهف: ٢٩] قل: أي قل: يا محمد إن

الحق هو ما جاءني من عند الله فإن قبلتموه صار النفع لكم والخير، وإن لم تفعلوا عاد الضرر عليكم.

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف: ٢٩].

والثابت أن صدور الفعل عن الفاعل محال من دون حصول القصد منه والداعي إليه ـ لذلك فإن حصول الكفر أو حصول الإيمان مرتهن بمشيئة الفرد من ذاتيته لأن صريح الأمر في الإيمان والطاعة وكذلك صريحه في الكفر والمعصية مفوض إلى العبد، متروك لاختياره.

والفائدة في ذلك.

أن الله تعالى لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يضار أو يستضار بكفر الكافرين؛ لأن نفع الإيمان يعود على المؤمنين، وضرر الكفر يعود على الكافرين؛ لقوله تعالى ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ [الإسراء: ٧].

قوله تعالى: ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا ﴾.

من بين صور الظلم وضع الشيء في غير موضعه ـ كهذا الذي استحسن بهواه وأنف عن قبول الحق ـ فظلم نفسه ووضع العبادة في غير موضعها ـ أولئك لهم نارٌ كما قال تعالى: ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾.

والسرادق: هو الحجرة التي تكون حول الفسطاط[1].

ويدلك القول على أن النار شيئًا شبيهًا يحيط بأهلها من كل اتجاه كما قال تعالى: ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ [إبراهيم: ١٧].

(١) بيت يتخذ من الشعر.

فإذا مـا كان عظيم الشواء وشـدة جفاف حلقـهم وما صـارت إليه بطونهم وجلودهم فإنهـم يستغـيثون بـبعض الماء وحقًا سـوف تقع منهم الاستـغاثة على المداومة، فيغاثون كما قال تعالى: ﴿**بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ**﴾.

قال أبو عبيدة والأخفش: كل شيء أذبتـه من ذهب أو نحاس أو فضة فهو كالمهل[1].

وقيل: إنه الصديد والقيح.

وقيل: إنه ضرب من القطران.

وأقول بأنها جميعًا وجوه تليق بحالهم.

وكلما أحدثوا استغاثة من حر النار طلبوا ماء للتبريد يصبونه على أنفسهم، صب عليهم هذا المهل الذي يشوي الوجوه فيتساقط بفعله لحم الوجوه ثم يتبدل.

- بئس الشـراب: الأصل أن شُرب الشـراب يذهب الظمأ ويطفئ اللهـيب ويسكن الحرارة - أما هذا الشراب يبلغ في احتراق أجسامهم مبلغًا عظيمًا ويحدث عذابًا مهينًا.

- سيرد هذا لاحقًا ضمن موضوع عذاب الظالمين.

❑ ● ❑

(١) مفاتيح الغيب (صـ ٣٠٣ ج ١٠).

الثاني: جهنم

قالَ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دُون اللَّه حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٠].

قالوا في أسباب نزول الآيات: إنها وردت في خطاب مشركي مكة وعبدة الأوثان، والقول عندي ـ عام ـ يتناول كل من صيروهم آلهة من دون الله ـ ما كان وما هو كائن إلى الآن كمثل ما يعبدونه الناس في الإقليم الشرقي النيجيري حيث عبادة الظواهر الطبيعية وأرواح الأجداد والأوثان والثعابين، وما هو كائن في الجنوب السوداني مما يعبدون هناك من الأوثان والأبقار ـ ومثل ذلك في الهند حيث تنتشر الديانات من صنع البشر واعتقاداتهم الخاطئة ومن ذلك إلههم المزعوم (رام) ـ وفي روسيا والصين ـ حيث تنتشر المجوسية والحياة اللادينية.

كل هؤلاء العابدون والمعبودين من دون الله مجموعين في جهنم ـ وإن جمعهم مع آلهتهم المزعومة ـ حاصلها زيادة في الغم والحسرة لأنهم ما دخلوا جهنم إلا بسبب عبادتهم إياهم وقد وقعت تلك الآلهة في جهنم استهزاء بهم.

ولكن لماذا جهنم؟

لأن جهنم فيها أعظم أقسام الكفر عقوبة وخزنتها أعظم درجة عند الله وهي اسم لموضع في النار قيل: إنه أبعد النار قعرًا [1].

بذلك يكون هؤلاء جميعًا: حصب جهنم هم لها واردون ـ أي داخلون

(١) مصادر متعددة وأقوال لكثير من المفسرين.

وقرئ: حَصَبُ، حَطَبُ، حَضْبٌ، حَضَبٌ.

وعندي: فالحطب هو مـا يوقد فيتـولد عنه رماد، أما الحَصب فـإنه الوقود الذي يظل متأججًا ولا ينطفئ أبدًا.

إذ لو أن ما كـانوا يعبدون من دون الله آلهـة ما وردوها؛ لأنهم لا يملكون نفعًا ولا ضررًا ولا موتًا ولا حـياة ولا نشورًا ، فلو كان ذلك منهم لأمكنهم دفع الضرر عن أنفسهم ولما دخلوا جهنم لأن من أدخل النار ليس بإلـه.

﴿ **وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾: وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ** ﴾، أي العابد والمعبود من المتحدث عنهم.

﴿**لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ**﴾: من غير شهيق وهو عام يتناولهم جميعًا ويتناول معنين:

الأول: أن تمتلئ صدورهم من اللهيب والحريق فـيحاولون إخراجه، ولكن مع شدة النار واستـمرار الحريق ظلوا يزفرون ما في صدورهم دومًـا من شدة ما ينالهم من الحريق والعـذاب، هكذا من غير شهيق أبدًا ـ لأنـه ماذا يجد في النار إلا النار.

الثاني: أن الزفير هنا يكون ألسنة اللهب التي تلفظهم لأعلى بزفيرها لقوله تعالى: ﴿ **لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً** ﴾ [الفرقان: ١٢].

فإذا ارتفعوا لأعلى ضربهم خزنة النار بمقامع من حديد فغاصوا عند القاع ـ وحالهم هكذا بين ما يزفرون من أفواههم وزفير ألسنة النار بطردهم ـ ثم ضربهم بمقامع الحديد وهكذا.

ذلك هو حال زفيرهم في جهنم التي لها شهيق وهي تتلقفهم عند طرحهم فيها وهي تغلي وتفور من شدة نارها وعظيم حريقها، لما قال تعالى: ﴿ **إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ** ﴾ [الملك: ٧].

وفيه شديد الزجر وكبير النهي لأولئك عما هم فيه، فمن ذا الذي يستطيع أن ينقذ نفسه من الدخول في بطن جهنم عند شهيقها ثم يرتفعون لأعلى بلهيبها وهي تلفظهم بزفيرها فيعودون بشهيقها في بطنها ـ كذلك وهم فيها لا يسمعون.

الأرجح أنه عائد على المعبودين ـ فهم غير قادرين على مدافعة العذاب عن أنفسهم وهو إثبات العجز عن غوث من معبودهم أو نجدتهم من شدة صراخهم وشواء لحمهم.

جهنم عذاب الطاغين

قال تعالى: ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا**﴾ [النبأ: ٢١ ـ ٢٦].

إنها تترقبهم وتنتظرهم عبر مراحل الزمان ـ وذلك على تعليل قيام الساعة وهي ترصد الطاغين خاصة.

والطاغي: هو من تكبر على ربه وجاوز وفجر في مخالفته ومعارضته فهي لهم المقر والمصير والمرجع.

﴿**لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾:

في اللغة: الحقب: المدة الطويلة من الدهر، جمع: أحقاب، وحقاب، والحقبة من الدهر المدة لا وقت لها. أو السنة، جمع: حقب، وحقوب.

بهذا تكون الأحقاب مددًا من الدهر لا وقت يُعلم لها يلبثون طيلتها في جهنم حقب بعد حقب إلى ما شاء الله.

لا يهب عليهم هواء بارد ينتفعون به فيخفف عنهم شدة الحر والحريق، أو أن يطفئ عنهم نار جهنم، ولا يجدون شرابًا يروي عطشهم أو يسكنه فيخفف

انصهار ما في بطونهم والجلود، فما لهم فيها إلا ﴿حَمِيماً﴾ وهو الماء المغلي جدًا الذي يشوي الوجوه حال دنوه منها .

﴿غَسَّاقًا﴾ الغساق: هو المنتن، لما قاله ﷺ: «**لو أن دلوًا من الغساق يهرق على الدنيا لأنتن أهل الدنيا**»[1]. وذلك لهم ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾: أي تلك العقوبة الشديدة، فالجزاء هنا وفاقا للذنب مساويًا له، يؤكد قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوءَى ﴾ [الروم: ١٠].

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠].

هذا وإن كانت الطاعات وعمل الصالحات وإتيان التكليفات على قدر العمر القليل يستوجب الخلود في دار الخلود وجنات عدن تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة، فإن المعصية وإهمال التكليفات وإتيان المنهيات يستوجب الدع في نار جهنم خالدين فيها أبدًا إلى ما شاء الله.

❏ ● ❏ من هم أهل جهنم؟

قال تعالى:

﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ [النساء: ١١٤].

﴿ ومَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٣].

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء: ١٢٠، ١٢١].

- ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

(١) فتح الباري (ج ١٦ صـ ١٥٢).

- ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

- ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩].

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣].

- ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

- ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

- ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٣٢].

- ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

- ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦].

- ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الملك: ٦].

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦].

- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

❑ ● ❑

الثالث: سقر

قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ *وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً * كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٥٣].

سؤل هؤلاء عما حبسهم في هذه الدركة من النار لهو زيادة في التوبيخ والتخجيل فأجابوا وهم يتحسرون على تضييع الصلوات الواجبة، وإهمال الزكاة الواجبة وتضييع الحق المعلوم فيها للسائل والمحروم.

حاصرهم الهم وملأهم الغم على خوضهم في جميع الأباطيل والذم والنم مع الخائضين وتحسروا على تكذيبهم بيوم المساءلة والجزاء حتى أدركهم الموت وهم على ذلك، وكانوا بذلك ـ لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأن غيرهم تنفعهم الشفاعة كقوله تعالى: ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٨٧]. فما لهم عن سائر المواعظ وعلى رأسها القرآن الكريم هم معرضون كأنهم الحمر الوحشية التي فرت من الأسد وقد استنفرت طلبًا للبقاء من الفناء وهي تفر لتنجو من الموت.

فليرتدع هؤلاء عما يقولون ولينتهوا عما يطلبون من المغالطات وما يرتكبون من المخالفات.

ولما كانوا لا يخافون الآخرة؛ أعرضوا عن الذكر وعن الصلوات وعن التأمل فصار ما كان منهم وهو ما حكى الله تعالى عنهم.

إنهم المجرمون الذين أتوا كل المعاصي والذنوب ـ فاستحقوا الوعيد الذي قرره الملك الديان لهم في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** ﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨].

الويل لهؤلاء المعرضين المجرمين المكذبين لأنهم كذبوا بالآيات وبالأنبياء والرسل الذين يرشدونهم إلى المصالح الجامعة بين أمور الأولى والآخرة.

فالإجرام: تكذيب عموم الرسل وإنكار قدرة الله تعالى على البعث والنشر.

والضلال: الجنون والهيام بلا اهتداء حائرين غير مهتدين.

السعر: ظاهرة العذاب الموعود به والمنصوص عليه في الآية.

يوم يسحبون في النار: على معنى يقادون أو يجرون على وجوههم ليتذوقوا شدة إيلام العذاب بطول مدته وعدم انقطاعه.

قال ابن عباس: (سقر)، اسم للطبقة السادسة من جهنم.

﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ** ﴾: يراد به التهويل من أمرها لأنها لا تبقي من الأجسام شيئًا فإذا بدلهم الله تعالى جلودًا غير جلودهم ليذوقوا العذاب، لا تذرهم على ما هم فيه بل إحراقهم بأشد مما كانت.

﴿ **لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ** ﴾: نصبًا على الاختصاص للتهويل من أمرها وبيان حالها فهي تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام (وهو قول الحسن والأصم[١])، نظير قوله تعالى: ﴿ **وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ** ﴾ [النازعات: ٣٦].

❑ ● ❑

---

(١) مفاتيح الغيب (ج ١٥ صـ ٨٤٥).

سقر عذاب المجرمين

إنهم المجرمون الذين يعرفون بما يميزهم عن سائر أهل الحشر لقوله تعالى: ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ﴾ [السجدة: ١٢]، ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة ﴾ [عبس: ٤٠، ٤١]، وقوله: ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

فلما كانت تلك سماتهم التي ميزتهم عن سائر أهل الحشر فقد عرفوا بدلالاتها وأخذوا بسببها كقوله تعالى: ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن: ٤١].

أي يعرفهم الناس والملائكة الذين يحتاجون في معرفتهم إلى علامة ـ أما الملائكة الغلاظ الشداد، والملائكة كتبة الأعمال ﴿ كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾ [الانفطار: ١١، ١٢]، أولئك يعرفهم كما يعرفون أنفسهم من دون احتياج إلى علامة وبالجملة يقال (يعرف).

أما الأخذ بالنواهي والأقدام إذلالاً وإهانة وقد يعني الجميع بين النواصي والأقدام من خلف الظهور فيتقوس الظهر حتى تصل الرأس والنواصي إلى القدمين، أو من جهة الأمام حيث تربط النواصي من الأرجل وتكون الرؤوس عند المركب ثم ينادي مناد: ويشير إليها لشدة قربهم منها ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ [الرحمن : ٤٣] والتقدير على (التي كان يكذب بها المجرمون) لأن في هذا الوقت لا يبقى مكذبون.

﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾، وذلك لأنهم يريدون الخروج منها طلبًا للغوث فيظهر لهم (الغسلين)[1]، فيظنونه ماء فيردون عليه فيشربون شربًا لا يرويهم لأنه أشد حرًا فتتقطع لذلك أمعاءهم.

والحميم: هو هاهنا إشارة إلى شدة غليان هذا الغسلين.

آن: من آن الماء: إذا انتهى في الحر النهاية وبلغ في الغليان الذروة.

فلما رأى المجرمون النار وسحبوا في النار على وجوههم وذاقوا مس سقر فوجدوها ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾.

---

(١) سوف يرد القول فيه.

❐ ● ❐ الرابع: الجحيم ❐ ● ❐
دركُ الطاغين والفجار

قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

طغىٰ: طغيًا: طغيانًا: جاوز الحد المقبول، طغىٰ فلانٌ: علا في العصيان، وتجبر وأسرف في الظلم، الطغيان تجاوز الحد في الظلم أو في اندفاق الماء.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾: واهتم بأمور الدنيا، وصدرت عنه السيئات وفسد حاله وعقله وبالغ في الفساد إلىٰ أقصىٰ الغايات، ومن ثم ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ اللائق بمن كانت تلك أخلاقه وهذه صفاته.

وقال تعالىٰ:

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٤ ـ ١٦].

فيه دليل علىٰ اجتماع كل الفجار استغراقًا في الجحيم: وهي تهديد عظيم لهم بذكر الوعيد عند يوم الجزاء مثل قوله تعالىٰ: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾، نظير قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة: ٣٧]. الفُجْر والكفر مترادفان لما قال تعالىٰ: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس: ٤٢]. كما أن النفاق والفسوق مترادفان لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ

هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٣٥].

فيـه نجد أن الله تعالى أمـر بحشـر ثلاثة أصناف من أهل الطغيـان والكفر والاستكبار وهم: الظالمين رأس الكفر.

ونساؤهم اللاتي على دينهم(أزواجهم)، كـقوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ [المسد: ٤]، وثالثهـا الأشياء التي يعبـدونها من دون الله كالأصنام والشياطين، ﴿**فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾.

أي قدموهم وسوقوهم كما تساق القطعان إلى طريق الجحيم فإذا ما أشرفوا عليه وانتهوا إليـه ـ قفوهم ـ أي ـ احبسوهم، إنهم مسؤولون توبيـخًا لهم وتأنيبًا وإذلالاً: ﴿**مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ**﴾ [الصافات: ٢٥].

كـما كنـتم في الدنيا يـنصر بعـضكم بعـضًـا ولماذا لا تمنع آلهـتكم عنكم العذاب، إنهم جميعًا مستـسلمون خاضعون، منقادون، لا حيلة ولا طريق لرفع تلك المضار أو للنجاة من ذلك المصير.

قال المشركون لشركائهم ﴿**إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ**﴾ [الصافات: ٢٨] أي أنكم كنتم تخادعوننا وتخدعوننا حتى توهمنا أن المقصود من دعوتكم نصرة الحق وتدعيم الصدق ليجلب لنا ذلك السعادات عندما زينتم من الديانات والمضلات.

فقال الشركاء: ﴿**بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ أي ـ لم تكونوا على إيمان عندما دعـوناكم ـ فـأضللـناكم عنه ـ ﴿**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي**

﴿كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وتابع الشركاء كلامهم للأتباع فقالوا: (وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قومًا طاغين ـ أي لا قدرة لنا ولا قوة فنقهركم ونجبركم على ما قلتم به ـ بل أنتم ضالين مغالين في معصية الله.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾[الصافات: ٣١] ـ وهو ما يوضحه قوله تعالى: في حكاية إبليس ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: ٣٢] لأن (وصفنا) بالإغواء ليس من قبلنا إنما بسبب ما وجب لنا وأنتم بأننا جميعًا لذائقون!

فأخبر تعالى عن الجزاء اللازم عن ذلك فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات: ٣٣]. لمجازاتهم في عذاب الآخرة عن مشاركتهم في الغواية والضلال في الدنيا.

ولأن الإجرام لفظ مطلق ـ يختص ها هنا بالكفرة الفجرة قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٤] الذين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] ـ أي ـ يستنكفون الإقرار بالتوحيد ويتعصبون لإثبات الشرك بالله تعالى.

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٨، ٣٩].

ـ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٣].

الواو ـ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ للعطف الذي يقتضي المغايرة عن الآية التي قبلها[1]: لاقتضاء مغايرة الحكم على الذين كفروا حصرًا أنهم أصحاب الجحيم لا غيرهم وأنهم كذلك لا ينفك لهم قيد عن ذي العذاب إشارة إلى

(١) راجع الآيات (٨٣ ـ ٨٥) المائدة.

دخولهم في الجحيم لأن الخلود لا يكون إلا لهؤلاء، أما المؤمن الفاسق فإنه يرجى انفكاكه عنها ودخوله الجنة.

قال تعالى:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ *﴾ [التكاثر١ ـ ٨].

اللهو: الانصراف على ما يدعو إلى اللهو واللعب والزينة ـ وكلها أدوات، ودعائم أمور الحياة الدنيا وأركان شهواتها ـ كقوله تعالى: **﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾** [الحديد: ٢٠]. وعليه يكون الانصراف هنا لم يكن لدين الله ـ إنما انصرفوا إلى التكاثر (التفاعل) بكثرة المال والجاه والاشتغال باللهو.

حتى زرتم المقابر: والزيارة هنا الموت والدفن فيها وكني بها عن التعريف بأنها ممر إلى دار الآخرة وأنها ليست الآخرة ذاتها.

﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: أيها المنصرفون عن الله ودينه والحق الذي جاء والنور الذي أنزل والنور الذي أرسل ـ سوف تعلمون عذاب القبر الذي كنتم به تكذبون وبإنكاره تقولون ـ إنكم فيه داخلون ـ لعذابه ذائقون ثم بعد ذلك سوف تعلمون عذاب الآخرة التي كفرتم بها ولم تقدموا شيئًا لها.

﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ـ بحقيقة الأمر ومآله ـ ما كان منكم أن ألهكم التكاثر وما انصرفتم إليه، جزاؤكم على ذلك لترون عذاب الجحيم **﴿جَزَاءً**

وفاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ـ أي ستحشرون إليها ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١٢].

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار[١].

وذكروا في النعيم المسؤول عنه وجوهًا.

أحدها: ما روي أنه خمس: شبع البطون، وبارد الشراب، ولذة النوم، وإظلال المساكن، واعتدال الخلق.

ثانيها: قال ابن مسعود: إنه الأمن والصحة والفراغ.

ثالثها: قال ابن عباس: إنه الصحة وسائر ملاذ المأكول والمشروب.

رابعها: قال بعضهم: الانتفاع بإدراك السمع والبصر.

خامسها: قال الحسن بن الفضل: تخفيف الشرائع وتيسير القرآن.

سادسها: قال ابن عمر: إنه الماء البارد.

سابعها: قال الباقر: إنه العافية.

الثامن: إنهم يسألون عن الزائد مما لابد منه من مطعم وملبس ومسكن.

تاسعها: قالوا : إنه يجب حملها على جميع النعم[٢].

وعندي: فذلك أليق وأولى لكونه عام يتناول أقسام السعادات وأشراط الهناءات.

والمعنى: إنه تأنيب ولوم وعذاب وتوبيخ لهم يستوجب الحسرة والألم

---

(١) مفاتيح الغيب (ج ١٦ صـ ٦١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (ج ١٦ ـ صـ ٦١٧).

لأنهم إنما حل عليهم ما هم فيه من العذاب كان بسبب انشغالهم في الدنيا عن العمل الذي ينجيهم من النار - إذ إنهم لو انصرفوا إلى طاعة الله لكانوا من أهل النجاة والفوز بأعلى الدرجات.

❑ ● ❑

❑ ● ❑ **طعام أهل الجحيم:**

قال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ**﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٨].

شجرة الزقوم:

ليس في أيدينا ما يصف بيانها، وظاهر اللفظ يشير إلى أنها كريهة الطعم منتنة الرائحة، غليظة الشوك شديدة الخشونة، لا يعلم بها إلا عند الأكل منها، فإبهام كنهها مدعاة لاجتنابها.

وليس لنا ما نقول إلا ما قاله الله تعالى فيها، مثل قوله سبحانه: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ**﴾، فالنار تحرق الأشجار، وسبحان من أوصل العذاب بشواء الجلد واللحم ثم تجديده والإبقاء عليهم أحياء داخل النار، إنه القادر على أن يبقي هذه الشجرة في جهنم تدب فيها الحياة لتدفع الشبهة التي قالوا بها أن كيف تنبت الشجرة في أصل الجحيم في قعر جهنم (ما دون القاع)، بينما أغصانها ترتفع لأعلى لتصل إلى كل دركات النار.

تلك الشجرة: ﴿**طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾.

الطلع للنخل من ذكورها، ويخرج مرة كل عام لتلقيح النخيل - والنخيل أطول الأشجار المثمرة.

إنه تشبيه تمثيلي كأن الطلع هذا موجود على الدوام ليقوم بعملية تلقيح شجرة[1] الزقوم ـ وهو موجود في أعلى النخل ـ ليراه الجميع ـ ولكنهم كيف يرونه؟ إنهم يرونه: ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ـ لأن الناس تعتقد أن الشياطين في نهاية قبح الصورة وتشويه السيرة ـ كما يعتقدون بأن الملائكة كمال الفضل في السيرة والحسن في الصورة ـ ولأن الناس تخاف الشياطين خوفهم بها واستخدام كلمة (رؤوس) يوحي بكثرة الشياطين عليهم واجتماعهم بهم.

وانظر أنه مع ذلك الخوف وكراهة الطعم ونتنة الرائحة ـ فالحاصل أنهم ﴿لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾.

وإنما يجبرهم على الأكل من تلك الشجرة على الوصف الذي فيها هو إزالة ما يقارب ذلك الضرر أو يسبقه ـ وهو ـ الجوع الشديد الذي يفزعهم ويقهرهم على فعله.

﴿إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

اعلم أن (شاب) الشيء بالشيء، وشوبًا: خلطه به.

(شاب) الشيء غيره: خالطه: فهو شائب والشيء مشوب[2].

والذي في ذلك أنه إذا ما غلبهم العطش بعد ما أكلوا من الزقوم لا يغاثون إلا بالماء المغلي في النار ليشوب (يخالط) الزقوم ليكتمل لهم عظيم الألم وأبلغ العذاب ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ـ وكأن كل ما نزل بهم من العذاب هو إعداد وتهيئ لهم قبل ورودهم في الجحيم ـ ثم يجتمع عليهم العذاب مرات ومرات إلى ما شاء الله.

---

(١) القادر على إبقاء الشجرة في النار من غير احتراقها لقادر على جعلها تأتي أكلها من غير طلع وهو تشبيه تمثيلي.

(٢) المعجم الوجيز باب شاب (صـ ٣٥٤).

❑ ● ❑ الخامس: السعير ❑ ● ❑
درك المكذبين والشياطين وآكلي مال اليتيم

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].

الآية وإن نزلت في قوم مخصوصين إلا أن المراد عام يتناول المكذبين بالساعة المعرضين عنها، المنكرين لها.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: يدل على أن دار العقاب مخلوقة بعددها وعتادها ـ معدة لهم.

والسعير: هي النار التي تستعر بشدة.

وعن الحسن رضي الله عنه (أنه اسم من أسماء جهنم).

وعندي: السعير درك من دركات النار يجاور جهنم، فنار جهنم لا تخبت ألبتة أما نار السعير فإنها تخبت وتستعر لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وهي تستعر من نار جهنم ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤].

سيرد بيان في ذلك ضمن موضوع من أسباب التأبيد في النار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وفيه تعديد وتذكير بمنافع النجوم وهي كثيرة.

والسماء الدنيا هي القريبة من الناس، وقد تزينت بمصابيح، وتنكير المصابيح، للإيهام وللإيهام عن أنها ليست كمصابيح الدنيا ـ لأنها محدثة ومختصة بموضع معين، فإنها تعمل في رجم الشياطين بشهب من نار ﴿ **فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ﴾ [الصافات: ١٠].

ويروى أن السبب في أن الجن كانت تتسمع لخبر السماء، فلما بعث[1] ﷺ حرست النجوم السماء ورصدت الشياطين، فمن تطاول منهم على رجاء استرقاق السمع ـ رمي بشهاب ثاقب فأحرقه لئلا ينزل إلى الأرض بخبر فيلقيه إلى الناس فيخلط على النبي أمره ويرتاب الناس في شأنه.

والشياطين والكافرون قرناء ﴿ **مقرنين** ﴾ [الفرقان: ١٣]، فقوله تعالى: ﴿ **أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾ [مريم: ٨٣].

لا يعني أن الله تعالى أرسلهم إليهم ـ إنما المراد أرسلهم عليهم يغوونهم ويضلونهم ويمنونهم ﴿ **وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴾ [الإسراء: ٦٤]، ولأجل ذلك صارت الشياطين ﴿ **تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾ أي تحركهم تحريكًا وتوجههم توجيهًا.

من هنا وجب اجتماع الشياطين مع الكافرين في السعير زيادة على كون إحراقهم بالشهاب في الأولى.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء: ١٠].

فيه دلالة على أن مال اليتيم جاز أكله من غير ظلم، لما قال تعالى لمن تولى أمر اليتيم وهو في عيلة: ﴿ **وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء: ٦].

وهو عام يتناول المسلم وغير المسلم.

فإن من أكل مال اليتيم ظلمًا إنما يفضي به إلى النار. وسيصلون سعيرًا.

وحسب أصحاب السعير أنها ﴿ **إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١٢].

---

(١) قال آخرون: وُلِدَ.

❑ ❑ • ❑ ❑ السادس : الويل ❑ ❑ • ❑ ❑

درك المطففين والمكذبين والهمزة اللمزة وغيرهم

قال تعالى:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

قالوا: الويل كلمة يقولها كل مكروب.

وقال ابن عباس: إنه العذاب الأليم.

وعن سفيان الثوري: إنه مسيل صديد أهل جهنم.

وعن رسول الله ﷺ إنه واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره.

قال القاضي: (ويل) يتضمن نهاية الوعيد والتهديد.

وأقول: إن صح القول عن رسول الله ﷺ قُبِل - وإلا - فإنه من الأولى أن يرد بفضل علم كنهه لله وحده. إذ لم يرد فيه إلا ما قال تعالى عنه (ويل).

فالويل لمن يكتبون الكتاب بأيديهم أو أن يأمرون شفاهة أو كتابة بذلك - فبئس ما كسبوا من رداءة ماصنعوا، فلهم ويل عن الكتابة وويل عن ما اكتسبوا.

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧، ٨].

الويل: للكذابين المبالغين في اقتراف الآثام المصرين على الإنكار المستكبرين عن الحق المتمردين على الأخلاق - رغم ما خلق الله من آياته كالسموات والأرض والموت والحياة والليل والنهار والغني والفقير... إلخ.

إنه الأفاك الأثيم الذي يصر مستكبـرًا منكرًا معرضًا رغم قوة الآيات وتعلم ظهورها وهذا يتناول ضمنًا الاستهزاء بما سمع ـ ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨].

وإذا شاهد أو علم بشيء مـن جملة ما أنزل الله على الرسـول ﷺ خاض في استهزائه وسخريته بجميع الآيات التي نزلت ـ ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿مِن وَرَائِهِمْ جَـهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠]: أي أنهـا تحيط بهم من كل اتجاه لا يغني عنهم ما كسبوا من عذابهم شيئًا ولا الأصنام أو الطواغيت التي عبدوها من دون الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿هَذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١]، كامل الهداية من بيان الإفك والآثام والبلاغ بالصيرورة والمآل.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَـفَـرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَـذَابٌ مِّن رِّجْـزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١].

وفي العمـوم: الويل للأفاك الأثيم، وقد تناول ضـمنًا هذا الويل ألوانًا من العذاب هي حصرًا.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: كونه شديد الألم.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: لشموله جميع الأفاكين بالإهانة مع العذاب.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ : كونه يبلغ أقصى غايات الضرر.

﴿لَهُمْ عَـذَابٌ مِّن رِّجْـزٍ أَلِيمٌ﴾: وهذا يعني تجـرع الرجـس (النجس) من الإطعام والشراب لقوله تعالى:

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦].

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦].

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

أي أن الويل وقد تقدم ذكره ـ إنما هو كـائن للمكذبين بوحدانية الله وقدرته والنبوة والساعة والأنبياء والرسل والموت والبعث والنشر والجنة والنار.

وفي الجملة فـإن ذلك يخوف الكفار ويـحذرهم من الكفر لما قـال تعالى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٨]، فـالويل لهم حيث المـصيبـة والطامة الكبـرى والمصيبة العظمى تترقبهم حين يوم الفصل حتى وإن أهلكوا أو عذبوا في الدنيا.

وقد أورد جل وعلا ذكـر عظيم إنعامه عليهم عندما خلقـهم من ماء مهين وذكر أطوار خلـقهم بدءًا من القرار المـكين وانتهاء بتـوفيـتهم آجالـهم وأرزاقهم ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [المرسـلات: ٢٣] ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٢٤]، الذين لم يعـتبروا من أن الأرض تـضم الأحياء في مـساكنهم على ظهرها والأموات في بطنها ليتأكدوا أن الموت مـصير كل حي ـ وجعل فيها جبلاً عالية ﴿ رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ [المرسلات: ٢٧] هي للأرض كالأوتاد تمسكها ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبـأ: ٧]. ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥].

﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً ﴾ [المرسـلات: ٢٧] غاية في العـذوبة ﴿مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، ثم ذكر تعالى عـقيب ذلك ـ الويل لهؤلاء الذين يكذبون بكل دلائل القدرة وعظيم الآيات والحكمة.

ثم قال تعالى: ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ * لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ [المرسلات: ٢٩ ـ ٣٣].

وهو تصـوير لعـذاب الآخـرة الذي كنتم به تكذبون وإلى العـقـاب الذي تنكرتم له ـ أيها المكذبون ـ انطلقوا إلى ظل من دخان يرد عليهم من فوقهم ومن تحتهم ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦].

إنه إذا ظل لا يمنع حر الشمس التي تدنو فـوق رؤوس الناس يوم القيامة ـ

وهو كذلك لا يمنع وصول اللهب ولا إبعاده.

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾[المرسلات: ٣٢].

قالوا فيه ـ القصر: أصول النخل الكبير والشجر العظيم.

كأنه ـ أي الشرر ـ قطع من النحاس (كتل).

ـ **﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾** [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٧] ، لما يأتي أمر ربك يحل عليهم عذاب الخجالة وهو عند العقلاء أشد من السيف والاحتراق بالنار ـ ومع ذلك ـ لا يؤذن لهم فيعتذرون ـ أي ـ في عذر يقولون به إذا توهموا وهما فاسدًا بأن لهم أعذارًا (لأنهم لا عذر لهم في الحقيقة).

ثم كرر الويل لهؤلاء المكذبين.

﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٨ - ٤٠].

حين يوم الفصل والحكم على جميع المكلفين ـ لذا جمعهم الله والغائبين، لاسيما عندما يكون الحكم ممن لا يجوز القضاء على الغائب منه جل وعلا.

فإذا كانت لهم القدرة على إتيان الحيل والكيد والمكر أو المعارضة كما كان منهم في الدنيا فليأتوا بها، إذ إن الحيل قد انقطعت والمكائد قد اندثرت.

ثم قال تعالى: **﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾**.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٤١ ـ ٤٥].

ولأن الخصومة في الدنيا باتت شديدة بين المؤمنين والكفار صار الكافر

يستعذب الموت ويستسهله من أن يرى القوة والدولة والفضل والخير للمؤمنين.

إنها الزيادة في اجتماع أصناف العذاب وأنواعه من الخزي والنكال والتقريع والتوبيخ والتهديد والتخجيل... إلخ.

الذي من أجله ورد ذكر المتقين وسعادتهم وكرامتهم ورفعتهم وعزتهم لتتضاعف حسرة المكذبين وتزداد همومهم وغمومهم.

﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾.

﴿ **كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ** ﴾ [المرسلات: ٤٦].

لأنكم عرضتم أنفسكم لهذه الآفات والمحن في الجملة عندما اشتريتم دنياكم بأخراكم - لذلك: كلوا وتمتعوا بالدنيا وملذاتها وشهواتها لأنكم بسبب ذلك مجرمون، ولكم الويل.

﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [المرسلات: ٤٧].

فالكفار لا ينقادون لطاعة الله ولا يشتغلون بعبادته مصرين على حماقاتهم وجهلهم وكفرهم وتعريض أنفسهم لما ينتظرهم من العذاب العظيم.

سلوكهم دائمًا كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [المرسلات ٤٨، ٤٩].

فأي جديد من الآيات نسوقها ومن الدلائل نقدمها - لهؤلاء حتى يرتدعوا عن كفرهم وينتهوا عن غيهم - ويتوقفوا عن تماديهم في غيهم وضلالهم.

﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [المرسلات: ٥٠].

قال تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

الويل هنا للذين يسرقــون المكيال والميزان بإنقاص القليــل، وإذا ابتاعوا من الناس بالكيل أو الوزن يســتوفون حـقوقــهم، وإذا كالوا لهم أو وزنوا يخـسرون الميزان ولا يوفون الكيل ووجه الذم هنا أنهم يأخذون زائدًا ويدفعون ناقصًا.

﴿ **أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ** ﴾ للقاء الله - ﴿ **لِيَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ هوله - يوم يقتص من القـرناء للجماء - ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ غاية في الخـشوع ونهاية في الانكسار والذلة.

قال تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴾ [الهمزة: ١]

الويل هنا: لفظة الذم والسخط.

وورد في الهمزة - اللمزة - ألفاظ.

أحدها: قال ابن عباس: الهمزة المغتاب، واللمزة العَيَّاب.

ثانيها: قال أبو زيد: الهمزة باليد، واللمزة باللسان.

ثالثها: قال أبو العالية: الهمزة بالمواجهة، واللمزة بظهر الغيب.

رابعها: الهمزة جهرًا، واللمزة سرًا، بالحاجب والعين.

خامسها: الهمزة واللمزة الذي يلقب الناس بما يكرهون.

وكان الوليد بن المغيرة يفعل ذلك، لكنه لا يليق بمنصب الرئاسة؛ إنما ذلك من عادة السُّقَّاط، ويدخل فيه من يحـاكي الناس بأقوالهم وأفعـالهم وأصواتهم ليضحكوا.

سادسها: قال الحسن: الهمزة الذي يهمز جليسه يكسر عليه عينه، واللمزة الذي يذكر أخاه بالسوء ويعيبه.

سابعها: عن أبي الجوزاء قال: قلت لابن عباس ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴾ :

من هؤلاء الذين يذمهم الله بالـويل، فقال: هم المشاءون بالنـميمة المفـرقون بين الأحبة الناعتون الناس بالعيب.

وأقول: إنما قـال تعالى: ﴿هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ بأسلوب التنكير - ليفـيد العموم والشمول في كل ما يتفق والمعاني والألفاظ التي ترد إلى أصل واحد: هو الطعن في الناس وإظهار عيوبهم.

- ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾: أو قرأ (جمّع) مالاً بالتنكـير ليصبح المعنى عامًّـا ليفيد عـموم المال وفيـه (توسيع) إذ إن ماله على مـعنى ذلك تكون - ما - بمعنى الذي - له - أي كل مـا صار مـلكه أو ما نسب إليـه امـتلاكـه نظير قـوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وذلك من دون قصر أو تضييق على أن ماله بمعنى المال الذي ملكه.

﴿وَعَدَّدَهُ﴾: أي أمسك به ليستعين به على نوائب الدهر وتصريفاته من دون إخراج النصاب الشرعي ثم التهام حق الله فيه.

وقد خال من فرط غفلتـه وطول أمله أن ما صار له في الدنيا أخلده وأبعده عن الموت ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.

إلا أن الموت نهـاية كل حي - فـإذا ما مـات هؤلاء تنحـوا في جـانب من العذاب يليق بهم لقوله تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ - أي - إن الأمر ليس كما يظنون عبسًا منهم.

﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾. [الهمزة: ٤، ٥].

أصل الحطمة في اللغة:

الراعي العسوف العـنيف، والنار الشديدة التي تحطم من دخلها فتـصيرهم

إلى حطام متكسر من شـدة عنفها وأخذها لهم، وتقـول رجل حطمة: أي شديد الأكل عظيم النهم يأتي على زاد القوم كله.

أي بأمره ومشيئـته وقدره وقدرته وإنما أضافها الله تعالى لذاتـه تفخيمًا من شأنها وتهويلاً من مآلها.

﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِـدَةِ ﴾: لأن القلب يتأذى مـن أذى يماسه فكيف إذا حرقت النار أجسامهم ودخلت صدورهم واستوت فوق أفئدتهم واعتلتها.

﴿ إِنَّهَا عَلَيْـهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾: أي مطبقة: فإن قلنا: مطبقة فـهذا حالها وعملها وإن قلنا: مطبقة بالكسر فلكونها مأمورة بالتضييق عليهم فإن شاء تعالى أبقى وإن شاء ضيق.

﴿ فِي عَـمَدٍ مُّـمَدَّدَةٍ ﴾: العمد والعامود واحـد، وهي لغة، وقرئ، عُمُد، عَمْدٌ.

أي أنهم حال كونهم موثقين بها تتعاظم النار عليهم فتحطمهم.

قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

قال سعـد بن أبي وقاص ومسـروق والحسن ومقاتل: مـعناه: أنه لم يبالي سواء صلى أم لم يصل[1].

﴿ الَّـذِيـنَ هُـمْ يُـرَاءُونَ ﴾: أي يجودون صـلاتهم أمام الناس ليقـولوا بشدة تدينهم، وهي مرتبة تسبق المنافقين الـذين لا يميلون للصلاة في السر حتى يظهروا للناس أنهم مؤمنون بينما هم على الضد من ذلك.

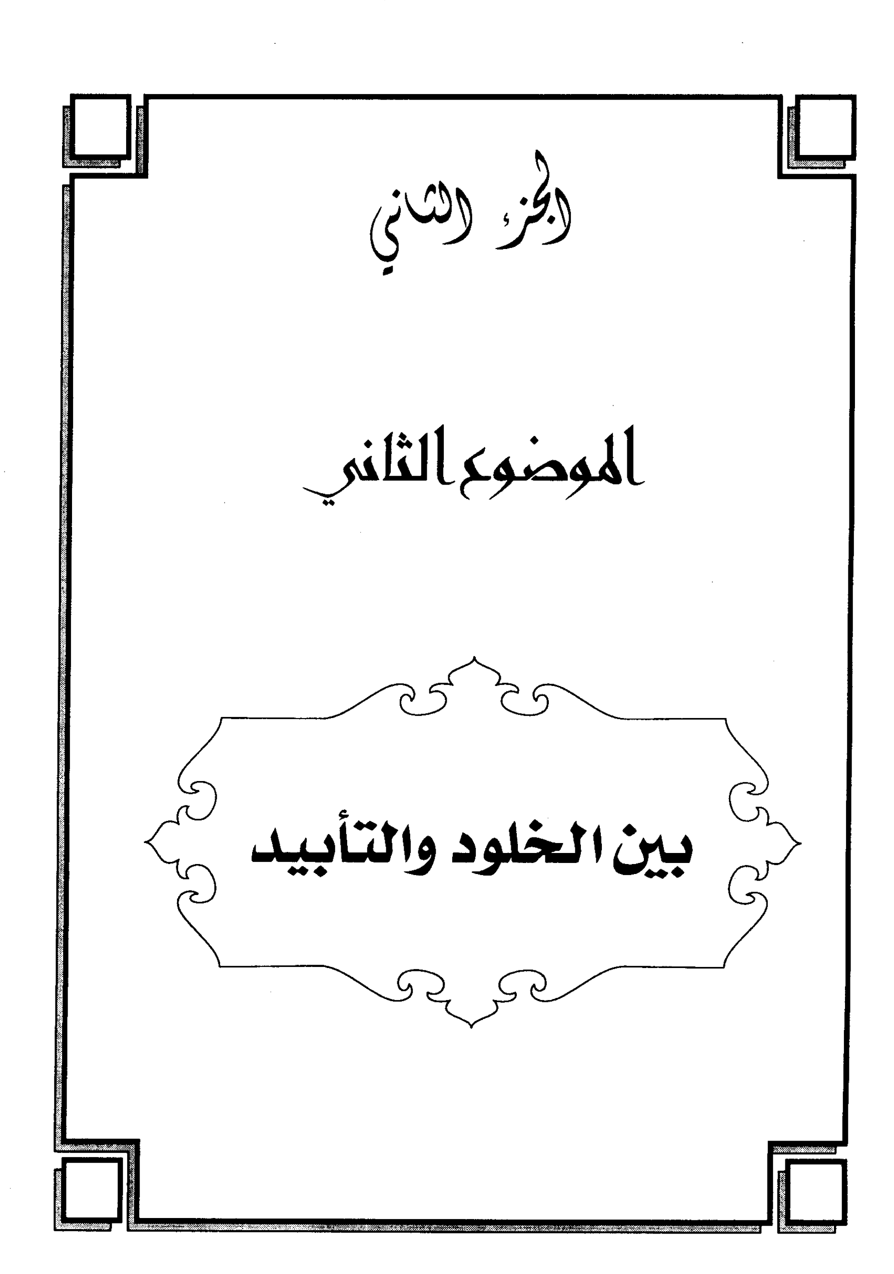
---

(١) مفاتيح الغيب (صـ ٦٦٧ ج ١٦).

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾: هو عندي ما عَيّنه الله وقدره وحدده من الزكاة الواجبة النصاب والصدقات المعلومة الاستحقاقات نظير قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٥].

فالويل لهم.

❑ ● ❑


الجزء الثاني
الموضوع الثاني
بين الخلود والتأبيد

(أ) من أسباب الخلود في العذاب

قال تعالى:

﴿ **إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢].

الظاهر أنه عام في كل من كان كذلك ومات عليه، كلهم ملعونين في الحياة وبعد الممات إلا من أدرك توبة صادقة ﴿ **إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٦٠]. فمن مات على كفره صار الوعيد لازمًا من غير شرط وصارت اللعنة من أوليات استحقاقاته.

واللعنة: هي: لعنة الله ـ لعنًا: طرده وأبعده من الخير فهو ملعون، جمع: ملاعين، وهو وهي لعين ـ لا تؤنث.

ولعن فلانًا: سبه وأخزاه.

اللعنة: العذاب يقال: أصابته لعنة من السماء جمع: لعان، ولعنات، فهم كما قال تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ثم إنهم مع ذلك يلعن أبناء الملل بعضهم بعضًا، وأبناء الدين الواحد يلعنون المارقين والفاسقين والمنافقين لقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، ذلك ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ** ﴾ [البقرة: ١٦٦].

أما الخلود: فإنه المكث الدائم، واللزوم الطويل ﴿ **خالدين فيها** ﴾ [البقرة: ١٦١] قيل في اللعنة والأليق أنها في النار وقد أضمرت تفخيمًا لها وتعظيمًا كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ [القدر: ١].

خلود لا ينقطع معه العذاب أو يخفف ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، أي يؤجل ويؤخر.

ذلك عذابهم الحاضر المتصل بعذاب مثله لا يؤجل وهذا يدل على يأس الكافر من انقطاع العذاب أو تخفيفه أو تأجيله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٧].

أما الند: فهو المثل المنازع ـ لقوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقيل في الأنداد إنها الأوثان التي اتخذوها آلهة يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ورجوا من عندها النفع والضرر، وطلبوا منها المسائل ونذروا لها النذور وقصدوها بكل الأماني وقربوا لها القرابين ـ وهو كذلك عند أكثر المفسرين.

وقال آخرون: إنهم السادة الذين كانوا يطيعونهم فيحلون لمكان طاعتهم ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ـ وبهذا قال السدي.

وأميل إلى ما قال به السدي لأن هذا أليق بحال من يتخذ من دون الله (رجالاً) يعظمونهم وينقادون لهم كأفضل ما يلتزمون مع الله تعالى، لأنهم يحبونهم كحب الله، وهي ليست محبة للذات، إنما هي محبة عاداتهم في عباداتهم وعاداتهم والتقرب إليهم والانقياد لأوامرهم.

أما الكاف فهي للتشبيه، وحب الله يقتضي حبًا ثابتًا فيهم، فهؤلاء يحبون ساداتهم وأندادهم، فيما يجب أن يكون هذا الحب لله، وإنما الحاصل أن الذين آمنوا أشد حبًا لله، وعلى هذا فإن الله تعالى يبادلهم الحب لما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ .[البقرة: ١٦٥].

لو يرى هؤلاء شدة عذاب الله وقوته لما اتخذوا من دونه أندادًا لعلموا أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب.

ودائمًا فإنه حال من يتخذ من دون الله أندادًا أن يفنوا عمرهم في عبادتهم وطاعتهم اعتقادًا منهم أنهم أسباب نجاتهم ورأس فوزهم، ولكن المتبوعين يتبرءون من الأتباع لعجزهم عن تخليصهم من العذاب لما رأوه عين اليقين - وكيف؟ - وقد عجزوا عن تخليص أنفسهم أصلاً من العذاب - فلم يجدوا ملاذًا أو منجاة لأنفسهم ولا لأتباعهم ﴿**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ**﴾.

وقد تمنى الذين اتبعوا لو يتمكنوا من العودة إلى الحياة الدنيا حيث الاختيارات والتكليفات فيقتصوا بالتبرء منهم ليلحق بهم وحدهم ما كان من شأن الخطب العظيم والعذاب الجلل، ولا فائدة فيه.

لأن أعمالهم قد انقطع الرجاء منها فتيقنوا بالهلاك لأن الله تعالى أراهم العذاب حين رأوا أعمالهم حسرات عليهم وهي مرتدة إليهم ألم وخيبة ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الواقعة: ٢٤].

والحسرة: شدة التلهف والحزن والندامة على ما تقدم من الذنوب والمعاصي نظير قوله تعالى: ﴿ **يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر: ٥٦].

ومن تحسر على الشيء: تلهف وحزن ـ والمتحسر: المصاب بالتعب، والملل ومنه فالحسرة انكشاف حال الندامة.

وقضى الله تعالى فيهم بحكمه العدل[1]. ﴿**وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ١٦٧].

قال تعالى: ﴿**وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**[2]﴾ [البقرة: ٢٦٧].

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: ٢٥٧].

نقول: الولي: كل من ولي أمرًا أو قام به، وكذلك فهو النصير، المحب، الصديق، المنعم، ومنه: والي فلانًا: أحبه ونصره، والمولى: الرب وكل من ولي أمرًا أو قام به، وفي القرآن الكريم: ﴿**فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الحج: ٧٨].

دلالته: أن الله تعالى هو ولي الذين آمنوا على سبيل التعيين، فهو يعينهم على أسباب الاستقامة والصلاح وكفالة المصالح، فإنه سبحانه يخرجهم بالأصالة من الظلمات إلى النور ـ أي ـ من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن النار إلى الجنة.

وسبحان الله بكرة وأصيلا: قد جعل الكفر كالظلمة الحاصل منها المنع من الإدراك، وجعل الإيمان نورًا كالسبب في حصول الإدراك ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ**﴾ [البقرة: ٢٥٧].

---

(١) راجع كتب التفسير المعتمدة. (٢) المصدر لكل أشكال العدالة.

وكل ما دون الله طاغـوت كجبروت الجاه وسطوة المال وجـاه الأنداد وفعل السحر وعبادة البـشر والشيطان والأوثان والهوىٰ ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالطاغـوت: هو ولي الذين كفـروا يفعل مـعهم على الضـد من فعل الله بالهداية للذين آمنوا.

لأنه ـ أي ـ الطاغوت: يخرجهم من النور إلى الظلمات.

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

أولئك: جمعًا يشير إلى كلا المذكورين (الكفار ، والطاغوت).

قال تعالى:

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤].

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: فيه اختصاص بمن أطاع وعصى.

أطاع الله بالجـملة في مجـمل التكليـفـات، وعصى الله هاهنا في أمـوال الأيتام، وأحكام الأنكحـة وأحوال المواريث، في الآيات المتقـدمة على الآية التي نحن بصددها، وعليه تكون المعصية في تعدي الحدود المذكورة ـ لا ـ في من أتى المعصية بالجملة، لأن الإتيان بكل المعـاصي محال فلا يصح أن يجتمع في واحد اليهودية والمجوسية أو الوثنية والنصرانية أو النصرانية واليهودية معًا.

فمن تجاوز حدود الله الذي ذكر يدخله ﴿نَارًا﴾ ولست أدري أي نار هي، فتنكيرها يفيـد إيهامها، والإيهام يفيد التهويل والتـقريع فهل هي نار الله الموقدة، أم نار تلظى، أم النار الكبرى، أم نار حامية؟ هي في علم الله تعالى.

﴿خَالِدًا فِيهَا﴾: سبق القول ولا فائدة في التكرار.

﴿ وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾: قلنا لأنه يشمل الإهانة الشديدة مع العذاب الأليم.

والله تعالى أعلى وأعلم.

قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥].

اعلم أن المراد بنقص العهود: هو إهمال المرء للأدلة أصلاً، لأنه إن أهملها لا يتمكن من النظر فيها وتعلمها وبالتالي يتعطل العمل بموجبها ومنه كذلك، أن ينظر ولا يهمل فيتعلم الصحيح فيعاند فلا يعمل بما علم، أو قد يقع في الشبهات فيسود عنده اعتقاد بالباطل خلافًا للحق.

حتى بعد أن وثق الله تلك الأدلة بالدلائل العقلية والنقلية المرئية والمحسوسة، وأحكم جل وعلا إخراجها للناس فلا دليل أقوى مما أخبر الله تعالى عن وجوب نفعه فنفعل ووجوب ضره فنترك ثم بعد إهمالهم الآيات يقطعون ما أمر الله به أن يوصل كموالاة الرسل ووصل المؤمنين والأرحام وأصحاب الحقوق ثم التجاوز والتمادي بالفساد في الأرض كالدعوة لغير الله وظلم الناس في نفوسهم وأموالهم وتخريب الديار والبلاد ـ فما جزاءهم على ذلك.

﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾: المراد: (جهنم) التي ليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها ومن انتهى مطافه فيها.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦].

فهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين لم يدركوا الكفر على

إطلاقه فالكافرون من أهل الكتاب: هم من كفروا بما أنزل على محمد ﷺ وكفروا به وبرسالته إلا أنهم أدركوا الإيمان بالله وبالتوراة وعملوا بذلك وهم (اليهود) ولكن ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا** ﴾ [البقرة:٨٩]، أما النصارى فإنهم أدركوا الإيمان بالله وبالإنجيل وعملوا بذلك، ولكنهم أهملوا ما بشرهم به عيسى عليه السلام ثم كفروا، ﴿ **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ [الصف:٦]، ولم يؤمنوا له وقالوا ﴿ **هذا سحر مبين** ﴾ أما المشركين - فإنهم ظنوا أن عبادتهم لله لا تصح إلا من خلال الشريك أو الطاغوت فإذا سألتهم عن ذلك قالوا ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾ [الزمر:٣]، ومفاد ذلك أنهم ابتداء قد عرفوا الله إلا أنهم أدركوا الكفر بمحمد ﷺ وبرسالته، أولئك هم شر البرية لما عرفوا من الحق وقد أعرضوا عنه، ففي نار جهنم مجموعون، وفي عذابها خالدون، وهو خلود من غير تأبيد، إنه المكوث الطويل في العذاب المهين، الأليم، العظيم في عذاب من رجس أليم جزاء لهم على كفرهم وشركهم، إلى ما شاء الله ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ [البينة: ٦].

ثم يرجى انتهاءً لهم العتق من النار حين يشاء الله.

والله تعالى أعلى وأعلم لأن أهل الكفر على إطلاقه هم خلاف لأهل الكفر من أهل الكتاب.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقرة:٦].

إنهم الكافرون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

أما أهل الكفر من أهل الكتاب فهم ليسوا كذلك، إنما قالوا: إن الله واحد وموجود بذاته وقد آمنوا بموسى عليه السلام وما جاء معه، وآمنوا بعيسى عليه

السلام وما جاء معه.

هؤلاء جميعًا لهم خلود، ينتهي عند خروجهم بإذن الله.

قال تعالى:

﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا** [1] **فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧].

❑ ● ❑

(ب) من أسباب التأبيد في العذاب

قلنا إنه ثمة أسباب للعذاب في النار وبينا بعضًا منها وتحدثنا في الخلد وتناولنا استحقاقاته.

أما ها هنا: سنتناول أسباب التأبيد في العذاب (وهو ما يعرف بالخلود الأبدي الوارد في قوله تعالى: ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً** ﴾ [النساء: ١٦٩].

والظاهر أنه خلود أبدي يقطع كل رجاء ولا ينتظر له انتهاء.

قال تعالى:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

وهذا وصف لأهل الكفر، والمراد ها هنا اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ وأنكروا نبوته وبما جاء معه وهو (القرآن الكريم)، ثم زادوا وتجاوزوا في الضلال فصدوا غيرهم عن سبيل الله عن طريق إلقاء الشبهات في قلوبهم وإلقاء الشوشرة

---

(١) سيرد القول فيه ضمن موضوع عذاب الأشقياء.

على ما يعتمل بعقولهم نحو قولهم.

إن الأنبياء لا يكونون إلا من ولد هارون، وقولهم: لو كان محمد نبيًا لأتى بكتابه دفعة واحدة من السماء، إلى ما شابه ذلك.

واعلم بأن أشد الناس ضلالاً من كان ضالاً ويعتقد أنه محق في نفسه ويراوغ ويتوسل باعتقاده الضال إلى اكتساب الجاه والأموال، ثم يجتهد ويبذل قصارى جهده في سبيل إلقاء غيره في مثل ذلك الضلال، إنه إذا كان قد بلغ في الضلال أقاصي الغايات ووصل أعظم النهايات ﴿**فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**﴾ [النساء: ١٣٦].

جزاؤهم على ذلك ما قال تعالى فيهم ﴿**لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ**﴾، لعلم الله الأزلي أنهم سيموتون على الكفر من دون إحداث توبة.

فما لهم من هداية نحو طريق يلتمسون فيه نورًا أو هداية أو توبة أو أن يجنبهم عذاب الخلد الذي كانوا يوعدون.

زد على ذلك أن الله تعالى لا يهديهم في الدنيا إلا إلى طريق الغي والضلال، ويوم القيامة لا يهديهم طريقًا إلى الجنة، بل.

﴿**طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً**﴾.

قال تعالى:

﴿**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً**﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

اللعنة: سبق القول.

لعن الكافرين: أي كما لعنهم في الدنيا لما سبق منهم وصدر عنهم حال كونهم في الدنيا ﴿**مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٦١].

فإنهم كذلك عند الله في الآخرة ملعونون بما استحقوا جزاء على كفرهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وبعد أن لعنهم الله أعد لهم سعيرًا ـ أي ـ هيأها وجهزها لهم بما يليق لهم جزاء على كفرهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: أي يطول بهم المكث والاستمرار على وجه التأبيد من غير أجل ولا أمل لخروجهم، لأنه لا ولي لهم يشفع لهم ولا ناصر يدفع عنهم العذاب ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

فيما سبق وجدنا أن الله تعالى قد وعد الكافرين بلون آخر في درك آخر من العذاب هو جهنم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨ـ ١٦٩].

فإن قيل: وما الإشكال في ذلك؟

قلنا: إن السعير هو درك للكافرين وعذابهم للذين كفروا وانتهوا عند ذلك من غير صد لغيرهم ومن غير ظلم منهم وقد صدرت عنهم بعض أفعال الخير مثل بر الوالدين والرفق بالحيوان والإحسان إلى الناس وعلاج المرضى ورصف الطرق وإنتاج الأدوية والتوصل إلى بعض العلوم النافعة. . .إلخ، إلا أنهم علمانيون دهريون.

أما جهنم: فإنها الأشد حرًا لو كانوا يفقهون وهي درك أعظم أشراط الكفر. . .(سبق القول في ذلك) جزاء لهم على كفرهم وتكفير غيرهم وصدهم للغير عن طريق الهداية وظلمهم للناس ولأنفسهم وامتناع فعل الخير منهم ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [ص: ٥٦].

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣].

لا أحد من خلق الله تعالى له القدرة على النفع والضر بما في ذلك رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴾ [الجن: ٢١].

قرأ أُبَيّ: غيًا ولا رشدًا.

فالله تعالى: هو النافع الضار.

فمن ذا الذي يجد الرسول ﷺ إذ ما تخلى عن دعوته في سبيل الله ولم يبلغ رسالته، لن يجد الرسول ﷺ ملجأ أو حرزًا أو ملاذًا له من دون الله.

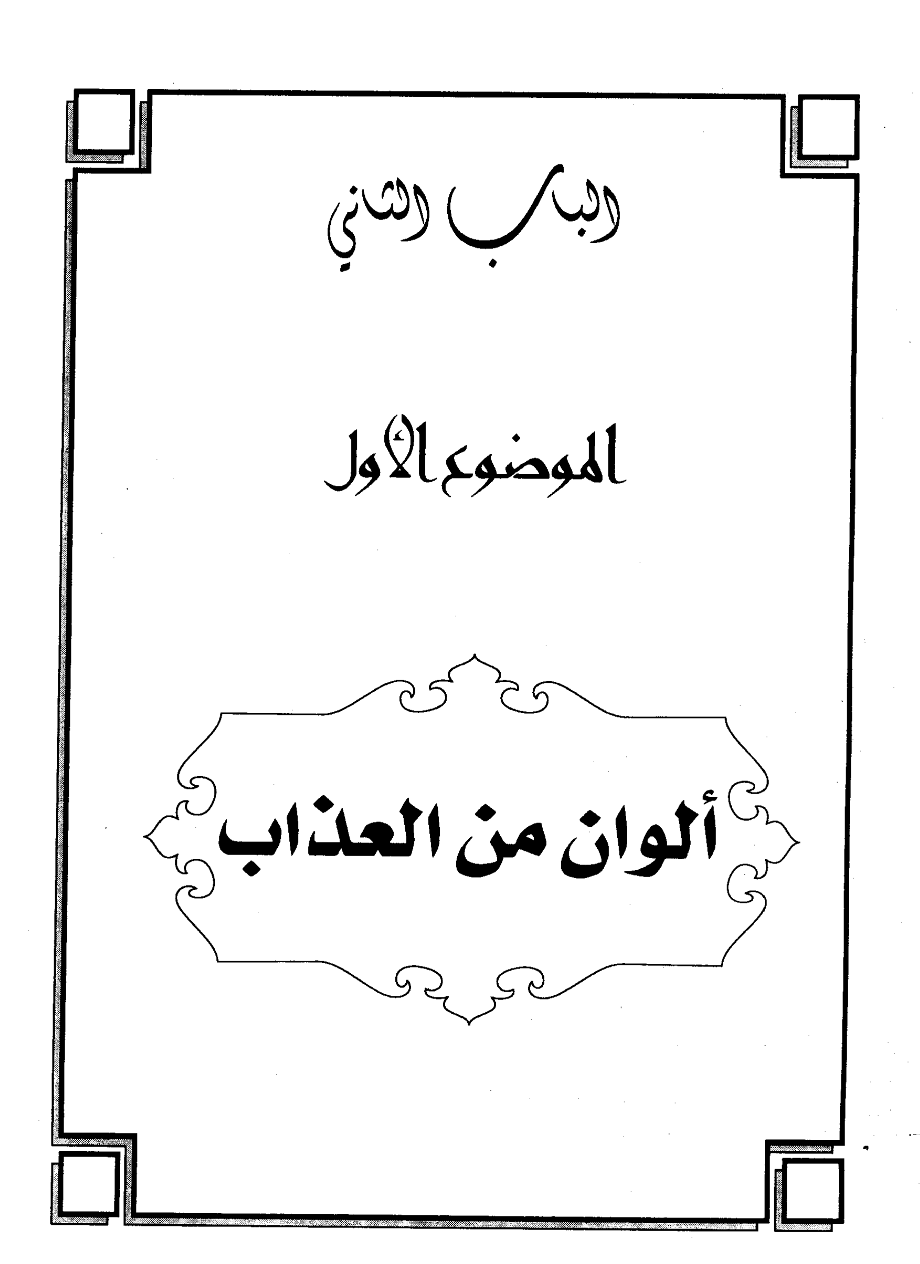
إنما اللجوء والاحتراز هو رهينة الاعتصام بدين الله الذي يقتضي التسليم والإيمان والتصديق بما جاء من عند الله والرسالات التي جاءت والكتب التي نزلت.

وقد أكد الرسول ﷺ أنه لا يملك لهم شيئًا من نفع ولا ضر إلا أنه رسول عليه البلاغ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ﴾ [الأعراف: ٦٢].

تنفيذًا لأمره تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولتبلغهم بأبلغ البلاغات وأفضل الحكمات: بأن، ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا ﴾. [النساء: ١٤] وهو حمل على معنى الجمع يتناول الكافر وغيره ممن عصوا الله بجميع أنواع المعاصي أو تناولوا بعضها ما لم تصدر عنهم توبة أصدق وطاعة أعظم من العصيان الذي كان منهم.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].



الباب الثاني

الموضوع الأول

ألوان من العذاب

❐ ● ❐ عذاب أصحاب المشأمة ❐ ● ❐

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [البلد: ١٩، ٢٠].

المشأمة هي في مقابلة الميمنة كما أن اليمين في مقابلة الشمال وضده.

الميمنة (جهة) أو المكان الذي به اليمن والبشرى والتفاؤل، وقيل: بأنها الجنة (وهذا حسن)، بذلك فهي على التضاد من المشأمة.

والمشأمة هي (جهة) أو مكان الخسارة والشؤم والخيبة والحسرة والعذاب ويمكن أن تكون (المشأمة) هي (الحطمة) لقوله تعالى ﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٤ - ٩].

❐ ● ❐ الأول: عذاب المكذبين

قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾ [المزمل: ١١ - ١٣].

إذا ما كان اهتمامك بأمر مهم وكان غيرك قادراً على كفاية هذا المهم على وجه التمام والكمال - ولم يتفق ذلك مع رغبتك. قلت: ذرني - أنا وهو - ﴿وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾.

﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾: إن قرأت بالفتح أفادت التَّنَعُّمْ - وبالكسر دلت على الإنعام - أمَّا قراءتها بالضمة تفيد المسرة، وهي دالة التنعم ومصدره.

والمراد صناديد قريش إذ كانوا أهل تنعم وترفه.

﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ : يقال: أمهله: لم يعجله، وأنظره ورفق به، و(مهله): أجله وأخره وقال به مهلاً ـ المهل: المهل هما: التؤدة والرفق كقوله تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٧].

﴿ قَلِيلاً ﴾: القليل هو الحياة الدنيا التي تصير إلى المآل الحتمي حيث ما في الآخرة من خير فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وعدد الله تعالى ـ لمآلهم أمورًا أربعة هي:

﴿أَنكَالاً﴾: مفرد نكل ونُكل وهو القيد الكبير الثقيل.

﴿وَجَحِيمًا﴾: وقانا الله شره ومعناه في لفظه.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾: وهو طعام من شوك كالعوسج يغص الإنسان حيث يأخذ بالحلق يدخل ولا يخرج فلا هو بقادر على ابتلاعه ولا على إخراجه وإن حاول ترجيع ما أكل. ليظل معذبًا بين القيء والبلع. ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ [إبراهيم: ١٧].

﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾: لأنه الأشد والأكمل مما تقدم من سائر أصناف العذاب التي ليس هنالك ما يدل عليه أو يشير إليه إلا ما قال إليه تعالى فيه: ﴿وعذابًا أليمًا ﴾[المزمل: ١٣].

أما المكذبين أولي النعمة فإنهم موجودون عبر سائر الأزمان وإن تباينت منهم الألوان، والله أسأل السلامة مما هو كائن ومما كان.

❑ ● ❑

❑ ● ❑ الثاني: عذاب أصحاب الشمال:

قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٥٦].

أصحاب الشمال هم الذين قال الله تعالى فيهم في ذات الحديث: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾، وهي علاقة النعت بالمنعوت والصفة بالموصوف والحال بصاحب الحال.

إن الهواء الذي يهب عليهم (سموم)، والماء الذي يغاثون به (حميم) وهما من أضر الأشياء بخلاف ماهيتهما ونفعهما في الدنيا.

و﴿السَّمُوم﴾[1] في اللغة: هي الرياح الحارة.

و ﴿الْحَمِيمِ﴾: بمعنى المفعول من جم الماء إذا سخنه، وعليه فإن أبرد الأشياء أحرها فكيف حالهم مع أحرها.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾: وهو اسم منصرف منكر.

ومن شدة عذابهم إن تعرضوا لمهب الهواء ـ أصابهم السموم وإن طلبوا الاستكانة في ظل لكان ظلاً من يحموم.

وقيل في اليحموم وجوه:

أولها: أنه اسم من أسماء جهنم.

(١) يطلق أهل المغرب العربي اسم السموم على الرياح الشديدة، التي تهب على بلادهم، والتي تعرف في مصر «الخماسينية».

ثانيها: أنه الدخان.

ثالثها: أنه الظلمة وأصله من الحمم وهو الفحم فكأنه لسواده فحم فسموه باسم مشتق منه، وزيادة الحرف لزيادة المعنى[1].

ثم إن هذا الظل الذي يستكنون إليه لا هو ببارد فيرفع عنهم الغيظ، ولا هو كريم فينفعهم في لهفتهم ويكرمهم مما هم فيه، وذلك لأنهم لم يشكروا الله تعالى على نعمه عليهم حال كونهم مترفين في الدنيا إذ إن أقبح القبائح هو صدور الكفران ممن عليه غاية الإنعام.

﴿**وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ**﴾، وفي ذلك دلالة إصرارهم على الشرك ومخالفة التوحيد.

﴿**وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ**﴾، وتلك دلالة أخرى على غيهم وإصرارهم وخراب عقيدتهم لما كان منهم من إنكار الحشر والنشر ومن ثم الكفر باليوم الآخر وبالجنة والنار، فصار ما ذكرناه عقيبة أمرهم لما عملت أيديهم أو قالت ألسنتهم.

❑ ● ❑

❑ ● ❑ الثالث: عذاب من أتوا كتابهم بشمالهم:

قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا**

(١) مفاتيح الغيب (ج ١٥ صـ ٢٨٦).

﴿الْخَاطِئُون﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧].

اعلم أن أصحـاب الشمال صنف من أصـحاب المشـأمة، وظاهر اللفظ أن مكانهم ناحية الشمال ومنتهاه من أصحاب المشأمة.

أما من أوتوا كتابهم بشمالهم فإنـهم صنف آخر يغاير أصحاب الشمال في اللفظ والمعنى ونوع العذاب، لقوله تعالى: ﴿وأَصْحَابُ الْيَمِين﴾ [الواقعة: ٢٧]، فقـوله تعالى: ﴿وأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِه﴾، هو الضد لليمـين لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه﴾ [الحاقة: ١٩].

فأصحاب اليمين ضد أصحاب الشمال.

ومن أوتوا كتابهم بشمالهم . . . ضد من أوتوا كتابهم بيمينهم.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِه﴾.

فإنه ليقول من شدة الخزي والخـجالة التي لحقت به من جراء يوم العرض: ليته يعذب بالنار فـإنها أهون عليه مما هو فيه عندما عـرض عليه كتابه الذي ﴿لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. فـإنه يعرض على أعـينه ويذكره بقبائح أفعاله.

ولأن الحساب حاصل ولا طائل منه تمنى لو لم يدر مـا حسابه، ومن شدة عـذاب الروح الواقع به تمنى لو لم يبـعث من موته أبـدًا حتى لم يلق مـا وصل إليه.

ثم هو يستفهم على وجه الإنكار عن ما أفاده ما كان فيه من اليسر والغنى، وذهاب الملك والسلطان أخذ يوبخ نفـسه على تسلطه الذي كثيـرًا ما نازع الناس بسببه وبقى له بعده الألم والوبال.

وانظر إلى ما لهـؤلاء الأشقياء من غم وحـزن وارتقب أحوالهم عند الغل والقيد وطعام الغسلين.

ابتداء تقول الملائكة من خزنة النار: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، فيبتدر إليه مائة ألف ملك وتجمع يديه إلى عنقه، ثم يقولون: إلى النار العظمى، وهي الجحيم، جزاء استعلائه واستطالته على الناس.

والسلسلة هي الحلقة المنتظمة في حلقة على التوالي وكل شيء هكذا في نظامه فهو مسلسل.

تلك السلسلة وصفها (سبعون ذراعًا) كناية عن الطول لا مقدار العدد فالمراد (أطوال كثيرة) كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً...﴾ [التوبة: ٨٠]، فالمراد مرات كثيرة. وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هو.

قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾.

قال المبرد: يقال سلكه في الطريق، وفي القيد، وغير ذلك، وأسلكته معناه أدخلته ولغة القرآن سلكته، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢].

وقال ابن عباس: تدخل السلسلة من دبره وتخرج من حلقه، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه.

وقال الكلبي: كما يسلك الخيط في اللؤلؤة ثم يجعل في عنقه سائرها وجاء تقديم السلسلة، (أداة السلك)، على (عملية السلك)، للتأكيد على أن لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة المنعوتة ها هنا، لأنها أفظع من سائر السلاسل، ودليله التفاوت في مراتب العذاب على كل واحد منهم أشد[1].

إنما هذا العذاب الشديد ما صار واجبًا لهم إلا لسببين أساسيين.

الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾، وفيه إشارة إلى فساد العقل والفكر.

---

(١) مفاتيح الغيب (جـ ١٥ صـ ٧٠٣).

الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾.

والطعام اسم أقيم مقام الإطعام، فيما بينه قوله تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ**﴾ [الإنسان: ٨].

والشاهد في النسق أن الله تعالى عطف قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَحُضُّ**﴾، على قوله ﴿**لَا يُؤْمِنُ**﴾ وجعله قرينة له.

ومن اجتمع هذان فيه جاء كما قال تعالى فيه:

﴿**فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ**﴾: أي ليس له قريب يدفع عنه ما يحل عليه من العذاب أو أن يدفع عنه ما هو فيه من الخزي، والخجالة وليس له في ذات اليوم إلا ما قال تعالى: ﴿**وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ**﴾.

الطعام: هو كل ما في الأكل.

والغسلين هنا: هو ما أعد ليأكله أهل النار فصار طعامًا لهم.

قال الكلبي: الغسلين: هو ماء يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا فسال منهم فهو (غسلين)، فعلين من الغسل.

روي أن ابن عباس سئل عن الغسلين فقال: لا أدري ما الغسلين؟[1] عمومًا، إنه الغسلين أكل الخاطئين فهو ﴿**طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ**﴾ [الدخان: ٤٤، ٤٥] وهو شرابهم كذلك.

﴿**لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ**﴾: وقرئ (الخاطيون) بإبدال الهمزة ياء، والخاطون بطرحها - أي - (إهمالها). والخاطئون هم الآثمون أصحاب الخطيئة أو الخطايا. ذلك لمن؟ لمن أوتي كتابه بشماله.

---

(١) مفاتيح الغيب (جـ ١٥ ص ٧٠٥).

الرابع: عذاب من أوتي كتابه وراء ظهره:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٤].

وللمفسرين فيه وجوه:

أحدها: قال الكلبي: السبب فيه لأن يمينه مغلولة إلىٰ عنقه ويده اليسرىٰ خلف ظهره.

ثانيها: قال مجاهد: تخلع يده اليسرىٰ فتجعل من وراء ظهره.

ثالثها: قال قوم: يتحول وجهه قفاه، فيقرأ كتابه كذلك.

رابعها: أنه يؤتىٰ كتابه بشماله من وراء ظهره لأنه إذا حاول أخذه بيمينه كالمؤمنين يمنع من ذلك، وأوتي من وراء ظهره بشماله.

وعندي: البعض يعطي كتابه بشماله: وهو الممنوع من أن يتناوله بيمينه، والبعض يعطي كتابه من وراء ظهره، وهذا عذاب خاص، زائد علىٰ العرض العام لكل أصحاب المشأمة.

فما كان ما وراء الظهر إذا التفت إليه صار وراء الظهر كذلك، كمن يدور في دائرة تدور معه إن أسرع أو أبطأ، فهو إذا يبحث عن ما وراء ظهره بالدوران إليه والالتفات عليه للإمساك به فيدور كذلك الكتاب وراء ظهره ثانية، فيظل يبحث عما وراء ظهره حتىٰ يختل توازنه فيعتدل ويعاود وهكذا إلىٰ ما شاء الله، حتىٰ يقضي الله تعالىٰ في أمره، فيؤتىٰ كتابه وراء ظهره ويمينه مغلولة إلىٰ عنقه.

وبعد كل ذلك العذاب، ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾، الثبور والهلاك واحد.

إذ إنه لما أوتي كتابه من وراء ظهره علم أنه هالك فيدعو ويهتف، واثبوراه: ثم يدخل السعير وهي موقع (درك في النار) له خصائصه وله أهله لما قال تعالى:

﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء: ١١٥].

﴿ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ١٦٣].

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦].

﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وذلك أنه كان في أهله حال الحياة الدنيا منعمًا مستريحًا من التعب حيث أنكر العبادات، وأبطل الطاعات، وأقدم على المعاصي، وهي عامة ولم يخف من الله، حسابه أو عقابه.

كما ضيع الفرائض من صلاة وصوم وجهاد، وكان بذلك لا يرجو لقاء الله تعالى، فصير الله تعالى حاله إلى الضد وأبدله غمًا دائمًا لا ينقطع.

وذلك جزاء من ظن أنه لا يعود إلى الله وقد نسي أن الله تعالى ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس: ١٩ - ٢٢].

وقال جل وعلا حسمًا للإشكال الذي وقع فيه هؤلاء:

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٢، ١٣].

لأن الكثيرين تنكروا لإمكان البعث والنشر والمساءلة والحساب والثواب والعقاب، أو كادوا أن يفعلوا في ذلك، قال تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق: ١٤].

الظن[1]: إدراك الذهن الشيء مع ترجيحه، جمع: ظنون، وظن الشيء، ظنًا: علمه بغير يقين.

والحور: الرجوع.

عن ابن عباس: ما كنت أدري معنى يحور، حتى سمعت أعرابية تقول لابنتها: حوري أي ارجعي، أي ظن هذا، أن لا يرجع إلى الله تعالى وبهذا قال كذلك مقاتل.

ولكن هيهات هيهات:

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ [التغابن: ٧].

إنه سيبعث من مرقده كما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١٥] - أي - من يوم خلقه إلى يوم بعثه.

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [يونس: ٦٠].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ الخامس: عذاب الفاسقين

أ- تعريف الفاسقين:

قال تعالى:

- ﴿ مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].
- ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨].

---

(١) المعجم الوجيز باب ظنَّ (صـ ٤٠١).

ـ ﴿ قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ـ ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٣ ، ٥٤].

ـ ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

ـ ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ـ ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

ـ ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المنافقون: ١ ـ ٦].

ـ ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧ ، ٦٨].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ عذاب الفاسقين:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

(فسقت)، الرطبة عن قشرها، فسقًا، فسوقًا: خرجت منه، فسق فلان: عصى وجاوز حدود الشرع، ويقال: فسق عن أمر ربه خرج عن طاعته.

وفي القرآن الكريم ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

فهو فاسق، جمع: فسقة، وفساق[1].

وفيه إشارة إلى حال الكفار وهو خاص .

فالكفر (الجحود والنكران) والفساق إن جاء بهم من قال أنه مؤمن (فعصى وجاوز الحدود)، فإنهما يستويان مثلاً ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٧]، لأن الكفر على إطلاقه وفعل السيئات الصادر عن المؤمن يستوجبان العقاب، إذ إنه ما بال المصلي السارق أو المصلي الزاني أو المصلي القاتل أو المصلي شارب الخمور. . .إلخ، مرورًا بالمصلي الذي يستحل مال اليتيم وهو في سعة وفضل.

---

(١) المعجم الوجيز باب فسق (صـ ٤٧١).

قلنا: إن تنكير لفظ النار يفيـد تعظيم شأنها وهول وقعهـا وتعدد دركاتها، أما ها هنا فـالأمر خاص، لأن لفظ النار جـاء معرفـًا، أي أن مأواهم كل النار، يتعذبون فيها ويذوقون كل ألوان عذاب كل دركاتها وأصناف عذاب الدركات.

(أوي) المكان أويًا: نزله، (آوي إليه): عاد أو لجأ، آوي فلانًا: أنزله عنده، يؤويه إيواء: أسكنه وأنزله.

تآوىٰ القوم: آوىٰ بعضهم إلىٰ بعض.

المأوىٰ: الذي يأوي إليه: يقال: فلان مأوي المحاويج، جمع: المآوي.

تلك هي مأواهم علىٰ تبسيط ما تقدم ذكره، ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ [الحج: ٢٢].

وفيه أن المؤلم من الـعذاب وما هو كائن من الألم الحاصل بـسبب العذاب الواقع بهم إذا طال وامتد، امـتنع الشعور به والإحساس معـه لذهاب الإحساس من خلايا الإحساس الموجودة في طبقات الجلد تحت البشرة.

وعليه فإن الله تعالىٰ لا يسكن عنهم العذاب، بل يرد عليهم في كل حال، أمر مـؤلم جديد ليذوقـوا العذاب ﴿ **ذُوقُـوا عَـذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٠].

لأنهم كانوا في الدنيا ينكرون الآخرة، ويكذبون بالعذاب الكائن فيها، فلما علموه ورأوه حق اليقين وذاقوا ما قيل فيه.

كان لهم أشد إيلامًا وأكثر أذىٰ لأن العـذاب الذي يصل إليهم يتوقعون أنه آخر العذاب فيرد عليهم عذاب أشد.

السادس: عذاب الجبارين:

قال تعالى: ﴿ **وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ** ﴾ [إبراهيم: ١٥ـ ١٧].

قوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَفْتَحُوا** ﴾أي الكفار وأهل الشرك والطاغوت، وقد استحكموا على الرسل ظنا منهم أنهم على الحق والرسل على الباطل، ونسى هؤلاء أن نصر الله كائن بالقوة والعزة بقضائه وقدره وحكمه لمن ينصر الله ﴿ **لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾. [المجادلة: ٢١].

أما ما هم فيه وواقفون عليه هو رأس الخيبة بقول الله تعالى ﴿ **وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ .

والجبار: هو المتكبر على طاعة الله وعبادته. والعنيد: هو المجانب عن الحق المائل إلى الهوى المنصرف إلى الغير، ومن صار هكذا كان خائبا غائبا محروما، ممنوعا من كل الخيرات، خاسرا كل أنواع السعادات لقوله تعالى:

﴿ **وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ** ﴾. [طه: ٦١]

﴿ **وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا** ﴾. [طه: ١١١]

﴿ **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾. [الشمس: ١٠]

لما حكم الله تعالى على الجبار بالخيبة وصف عذابه بأمور هي:

أولها: ﴿ **مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ** ﴾.

الوراء في اللغة: يقال: هو وراءك لما استتر عنك سواء أكان خلفا أم قداما.

ولفظة (وراء) اسم لا يواري عنك من كل الجهات كأن يقال الموت وراء كل أحد.

إذ إنه ليس له جزاء على تجبره ومعاندته إلا جهنم يدخلها ليلقى فيها أشد أنواع العذاب.

والثابت أن أهل النار من وجوه كثيره.. وأصناف عديده.. يختلف بحسب الدرك الذي يؤول إليه داخله، ومن ذلك أن عذاب أهل جهنم لا يتشابه أو يتطابق مع عذاب أهل السعير... وهكذا.

بهذا تبرز أهمية تخصيص عذاب جهنم بالذكر لهؤلاء.

ثانيها: ﴿**وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ**﴾ - يجري عليه مجرى الطعام والشراب، وقد ذكرنا سابقا فيمن ﴿**أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ**﴾ [الحاقة: ٢٥]، ليس له﴿**طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ**﴾ [الحاقة: ٣٦]، وهو يجري كذلك عليهم مجرى الشراب والطعام.

ودلالة ذلك البرهنة على اختلاف عذاب أهل كل درك في النار بما استوجبه أصحاب كل درك.

إذ إن أهل جهنم يشربون من ماء صديد، من غير ذكر لطعامهم.

بينما من أوتوا كتابهم بشمالهم يأكلون من (الغسلين) من غير ذكر لشرابهم.

وسبحان القادر على أن يخلق في جهنم من الصديد أو ما يشابهه في النتانة، وغلظ القوام، والقذارة.

قيل: إن الصديد ما يسيل من جلود أهل النار. والصديد: غليظ القوام، يحل محل الطعام ويعمل عمله، لأنه بين بينين، الغلظة والسيولة.

ثالثها: ﴿**يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ**﴾ [إبراهيم: ١٧].

التجرع: هو تناول المشروب جرعة جرعة بالمداومة على الكراهية من دون استطابة ذلك المشروب، كأنه يجرع البعض كرها، وما ساغ الكل.

رابعها: ﴿**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ**﴾ [إبراهيم: ١٧].

لأن موجبات الموت أو أسبابه قد اجتمعت عليه وأحاطت به من كل جانب، ومع ذلك فهو لا يموت.

خامسا: ﴿ **وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ** ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وهو العذاب المتجدد والمتطور إلى الأشد والأحدث على الدوام ومن غير انقطاع.

❑ ● ❑

❑ ● ❑ السابع: عذاب المجرمين:

أ- يوم العرض:

قال تعالى: ﴿ **وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [إبراهيم ٤٩-٥١].

المراد يوم العرض ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ** ﴾[إبراهيم: ٤٨] ﴿ **يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** ﴾[غافر: ١٦]، يوم العرض على الله الواحد القهار.

القهار: فعال: للمبالغة من قهره من هو دونه.

لقد فضح غرور المجرمين وبين عجزهم وأذل عزهم بقوله تعالى:
﴿ **وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** ﴾.

وفيه أن كل كافر وفاسق يقيد في [غل][1] مع قرينه من الشياطين في الأصفاد تقول: صفده صفدا: شده وأوثقه.

(١) قيد من حديد.

والصفد: الوثاق، جمعها أصفاد.

إنهم يقيدون مقرنين في الأصفاد يوم الحشر، ولما يساقون إلى النار، وهم كذلك في بطن جهنم.

ثم يوضع الكتاب فتكون الحسرة المؤلمة، ويكون الألم الشديد.

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

بينما هم مقرنين في الأصفاد، يرتدون جميعا قمصانا [سرابيلا] من قطران.

القطران[1]: القِطْران أو القَطِران: لغة.

وهي مادة سوداء لزجة تستخرج من شجر يسمى الأبهل من الفحم ونحوهما بالتقطير الجاف، وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس، والحديد من الصدأ.

والقطران: أسود اللون منتن الرائحة، ومن شأنه أن يسارع في اشتعال النارفتطلى به جلود أهل النار، حتى تصير تلك القمصان عليهم، فكيف بهؤلاء إذ تغشى وجوههم النار؟ - أي - تتغشى تلك الوجوه بالنار حيث تظهر آثار العقاب ثم يأمر بهم فيساقون إلى جهنم.

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٦].

ب - في عذاب جهنم:

قال تعالى: **﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ**

---

(١) يستخرج حديثًا من البترول ، وهو من أهم مشتقاته.

فيه مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٦].

اعلم أن لفظ المجرم عام يتناول المكـذب والكافر والفاسق من الجن والإنس على السواء.

وذلك لأن الله تعالى جمعهم في جهنم، فوجب كونهم مقرنين في عذاب جهـنم كمـا كانوا مـقرنين في يوم العـرض، وهم في العذاب خـالدون قلنا: إن الخلود هو المكث الطويل في العـذاب الذي لا يفتر عـنهم - أي لا يخفف ولا ينقص.

والمبلس: اليائس الساكت، سكوت يائس من فرج.

روي عن الضحـاك قوله: يجعل المجرم في تابوت من نار، ثم يقـفل عليه فيبقى فيه خالدا، لا يرى أو لا يرى.

قال صاحب الكشاف: وهم فيها - أي- وهم في النار كأن تقرأ الآية هكذا «إن المجرمين في عذاب جهنم وهم فيها خالدون» [1] والله أعلم.

وهو خالد في النار عوان بين الموت والحياة لقوله تعالى:

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

تلك إرادة الله بهم ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨].

وقضى الله تعـالى لهؤلاء المجـرمين أن يأكلوا ويتمتـعوا، حـال كونهم في الدنيـا لأنهم لا خلاص لهم في الآخـرة ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

فلما لم يحرموا أنفسهم من متاع الدنـيا وملذاتها وسعادتها حق عليهم قول

(١) هي قراءة شاذة لا يجب اعتقادها ؛ لأنها لم ترد في المصحف المعتمد.

ربنا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ الثامن: عذاب المنافقين:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]

هي حكاية عما أصاب المسلمين يوم أحد ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ - أي - الجيشان جيش المسلمين بقيادة النبي ﷺ، وجيش المشركين الذي كانوا مع أبي سفيان.

تؤكد الحكاية على أن ما أصاب المسلمين فبذنبهم الذي هو من عند أنفسهم.

كما تقدم فائدة أخرى: هي معرفة المؤمنين من المنافقين ولفضح أحوال المنافقين أمام المؤمنين، ليحذروهم لأنهم أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر.

وقد علم الله حال الذين نافقوا في ذلك اليوم حيث مارسوا الأعمال اللائقة بالنفاق، مع ادعائهم الإيمان والتمسك به، وقد قيل لهم: تعالوا فقاتلوا في سبيل الله، إن كنتم تدعون الإيمان، وإن لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفاعا عن أنفسكم، وأهليكم وأموالكم، وهو المراد من قوله تعالى ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾.

رد المنافقون: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ وفضحهم تخاذلهم وكشفهم ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾.

يستخلص من ذلك قولهم: إننا لو نعلم فنون القتال، وأصول المحاربة لقاتلنا معكم، وكانوا إذ ذاك ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي أنهم يظهرون الإيمان ويضمرون الكفر، فلسانهم مخالف لما في قلوبهم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

ب - قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

اعلم أن الله تعالى لما أوجب طاعته بين كذلك وجوب طاعة الرسول ﷺ ثم بين كذلك أن المنافقين والذين في قلوبهم لا يطيعون الرسول ويتمردون على حكمه.

فهم يريدون حكم غيره رغبة منهم في التحاكم إلى الطاغوت ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]. لأن عقيدتهم الخربة تفضي بهم إلى الإيمان بالطاغوت، بينما صحيح العقيدة في وجوب كفرهم به وإيمانهم بالله.

ثم إن هؤلاء المنافقين تفرقوا واستنفروا عند التحاكم إلى الرسول ﷺ لأنهم ظالمون وذلك لسابق علمهم بأن الرسول ﷺ لا يأخذ الرشا ولا يقول بغير الصدق ولا يحكم بغير الحق - فصدوا عن الرسول ﷺ صدودا، ولم يجيبوا دعوة الله إلى ما أنزل جل وعلا ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]. وما كان ذلك إلا لعداوتهم في الدين وبغضهم للحق والصدق.

فإذا وقعوا في البين ووصل بهم مكروه، أو أصابهم القرح جاءوا إلى الرسول ﷺ يحلفون كذبا أنه ما كان منهم من الصد إلا ابتغاء الإحسان

والتوفيق، ولا يعلم ما في قلوبهم من النفـاق والكيد والعداوة والغيظ، إلا علام الغيوب جل وعلا، فأمر الله تعالىٰ معاملة هؤلاء من أهل النفاق بثلاثة أشياء:

الأول: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: ذرهم علىٰ حالهم ولا تلتفت إليهم.

الثاني: ﴿وَعِظْهُمْ﴾: بالتخويف من النفـاق الذي يجمع والشرك في نار جهنم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

الثالث: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾، يؤثر في نفوسهم بالغم والحزن ويستشعرون منه الخوف والأسىٰ والمرارة والألم، ويذكرهم بأن ما في قلوبهم من النفاق والمكـر والمكيدة والحسـد، معلوم عند الله، الذي بين تعـالىٰ لهم أنهم لا فرق بينهم وبين الكفار فيما هم عـليه، فربما أحدثوا توبة، وإلىٰ أن يتوبوا أعرض عنهم، وعظهم.

قال تعـالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً * بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٧، ١٣٨].

اعلم أنه لا وجـود للإيمان في قلوب من تكرر منهم الكفـر والإيمان كرات ومرات، لأنهم فاسقون منافقون يستبـعد منهم الثبات، ويستغرب عليهم الرشاد، وأغلب الظن أنهم يموتون علىٰ الفـسق والفجـور، واقرأ إن شئت في كـتاب الله تعالىٰ من سورة البقرة، ابتداء من قوله تعالىٰ:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ...﴾ إلىٰ قوله تعـالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٨-٢٠].

وبعد أن انتهوا إلى الكفر وثبتوا عليه، حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾: بجدهم واجتهادهم في استحداث واستخراج أنواع المكر، والكيد في حق المسلمين، ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]. وبلغوا حد الاستهزاء والسخرية بالإسلام لذلك ﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ وفيه أخبار عن علم الله تعالى بموتهم على الكفر البين من غير إحداث توبة قبل موتهم، وهو ما يستوجب حرمانهم من الهداية والفضل، ﴿وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾، للخلاص مما هم فيه في الدنيا، ولا يهديهم في الآخرة إلى الجنة، لأن ما لم يصل إلى دار الثواب، يكون قد وصل إلى أقصى العقاب.

ثم لهم البشرى على سبيل التهكم ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾[النساء:١٣٨] بأن لهم عذابا أليما - لقاء ما كان منهم من صد عن سبيل الله وعن الذكر وعن الرسول ﷺ.

إن هؤلاء لهم البشرى التي تليق بحالهم، كقوله تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦١].

لقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بجهاده لهم والغلظة عليهم والشدة وعدم الرفق بهم، لما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التحريم: ٩].

ثم جمع الله تعالى أصحاب العمل السيئ (المنافقين والمشركين) في نار جهنم ذات المصير السيئ كقوله تعالى:

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦]. يثبت لنا أن المنافقين مجتمعون تارة مع الكافرين، وأخرى مع المشركين في نار جهنم.

وعلى النحو المتقدم يكون أهل الكفر والنفاق والشرك ملة واحدة من غير قياس، وحسبهم جميعا وحدة الصف ووحدة المصير كقوله تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧-٦٩].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ التاسع:

الأول: عذاب الظالمين:

أ - قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [هود: ١٨-٢١].

اعلم أن الافتراء على الله أعظم أنواع الظلم ومن فعله لاقى أعظم أنواع العذاب وأشد أشكال الانتقام ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

ومن افترى على الله - وقع في خيبة عظيمة، وذاق وبال أمره ﴿أُولَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وينطق الأشهاد شهادة على ظلمهم بما فيهم أحوالهم وجلودهم ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١].

وإذا قيل: لماذا ذكر الله تعالى هؤلاء بالعرض؟

قلنا: لأن العرض عام في العباد للمساءلة والقضاء كقوله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨].

إنما هم مختصون بالعرض لأنهم يعرضون فيفتضحون لأن الأشهاد عند عرضهم يقولون ﴿هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

فيحصل لهم بذلك مالا مزيد عليه من النكال والخزي والهوان.

كما استحقوا في الحال اللعنة من الله كونهم يصدون عن سبيل الله وعن الذكر من غير انتهاء، ويبغونها عوجا - أي - يلقون بالشبهات ويروجون للضلالات، ويأتون المنهيات، ويمارسون الانحرافات، رغم علمهم بالاستقامة وصحيح الدين.

ثم تراهم ثابتين في الكفر، جاحدين للآخرة منكرين لها.

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾:

أي لا قدرة لهم على الفرار، كما كان لهم من دون الله من أولياء.

فلا أحد يستطيع تخليصهم من ذي العذاب الذي يترقبهم وينتظرهم، ولسوف يضاعف لهم العذاب، بسبب كفرهم بالله وبالبعث والنشور، وسعيهم في الضلال ومنع الناس عن الدين الحق.

ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، أي: بسبب إهمالهم بما أنزل الله من الآيات والحكمة عجزوا عن إبصار دلائل القدرة كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق :٥]. كما أنهم لم يستطيعوا السمع أي: بسبب إعراضهم عن سماع رسالة الله ولا داعيه (صاروا) كالصم الذين لا يسمعون، إلا إنهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

أولئك الذين اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان ذلك أعظم وجوه الخسران.

وضل: أي تاه عنهم ما كانوا يفترون.

لأنهم رضوا بخسيس الدنيا وحقيرها، وأهملوا كريم الآخرة وشريفها لا جرم[1] لا بد ولا محالة، وحق وصح لهم ما وعدوا به، من عذاب وخسران، وأنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

وذلك لأن من لم ينل حب الله، إنما قد يكون قد باء بغضب منه. لما قال تعالى:

﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

❑ ● ❑

ب - قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ

(١) «جَرَمَ» جَرْمًا: أذنب، ويقال: جَرَمَ نَفْسَهُ وقومه، وجرم عليهم وإليهم: جنى جناية، جَرَمَ على الرجل: حَمَّله جرمًا: أي بما جرموا استحقوا ما صاروا إليه.

تدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِين ﴾ [الأعراف: ٣٧].

فليس بعد الظلم من ذنب ولا أعظم ذنبًا ممن خاب وحمل ظلمًا، كونه افترىٰ علىٰ الله ظلما ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

لأن ذلك يدخل فيه الحكم بوجود غير الموجود في الحال، ويتناول ما لم يوجد أصلا، ويطول الحكم بإنكار ما له حقيقة ووجود وعين وأثر، ويدخل فيه كذلك كل مشرك بالله تعالىٰ، ومن جعل لله بنين وبنات، ومن قال من أهل الكتاب أن يد الله مغلولة ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤].

فضلاً عن القول بالأحكام الباطلة، وإنكار القرآن الكريم، ونبوة الرسول ﷺ - أولئك ينالهم حظٌ من أمور الدنيا، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورىٰ: ٢٠].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

فيصير لهم الحق في التلذذ بأمور الدنيا، فيتمتعون ويأكلون، كما تأكل الأنعام، حتىٰ إذا بلغوا الغاية في حصول ذلك النصيب، من عمر ورزق جاءتهم رسل الموت فيتوفونهم فيقولون لهم:

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٣٧].

أي: تدعون وتعبدون وتقدسون، وتعظمون من دون الله تعالىٰ.

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾: - أي - بطلوا عن ادعاءاتنا وذهبوا عن اعتقاداتنا، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

فاستحقوا ما وجب للكافرين من عذاب عند الموت وعند الحشر في

الآخرة، فعند الموت قال تعالى:

﴿ولَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠, ٥١].

وعند الحشر قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۞ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۞ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

وعند الحساب لا يتقبل منهم عذر عما كان منهم.

لقد تركوا العمل بالطاعات وقد قيل لهم: (اعملوا).

أما عند المساءلة فإنه يوم الجزاء على العمل ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ولهم اللعنة على ذلك ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧].

❑ ● ❑

• الثاني ظلم النفس:

الظلم والمظلمة: الجور ومجاوزة الحد، ووضع الشيء في غير موضعه، كأن تقول (من استرعى الذئب فقد ظلم).

ظلم فلانا حقه: غصبه أو نقصه إياه فهو ظالم وظلام.

تظلم القوم: ظلم بعضهم لبعض.

ومن ثم فإن الظلم عام يتناول أشكالا ويتعدد أطوارا، وتتنوع فصائله كالغيبة والنميمة، وأكل أموال الناس بالباطل، وقرب مال اليتيم من غير الأحسن وعن غير ضرورة [1]، وشرب المسكرات لأنها تغيب العقل، وتضع الإنسان في مرتبة أقل من تلك التي هو عليها وظلم النفس والغير، والاختلاس والسرقة والرِّشَا والتربح والغش والتدليس والسطو والاغتصاب والخيانة وخيانة الأمانة، والإتلاف العمد والإسراف والبخل والشح والإمساك والتدخين وتصديق العرافين والسحر، والتنبؤ والاعتقاد فيه، ونقض العهود والرقص والغناء وسماع الأغاني مما يثير الغرائز، ويحرك الساكن، ويهيج الجوارح، ويحض على الخطيئة، والزنا، ونكاح الرجال، وإتيان المرأة من الدبر، وإلحاق الأذى بالناس بالقول والفعل - وعدم تأمين الجيران البوائق - إلخ من عموم صور الظلم، بما في ذلك إذاء أهل الذمة، وصناعة التماثيل ووضعها أو نقشها على الحيطان (حائط - أي جدار) مما كان له ظل وما ليس له ظل.

وفي مثل ذلك نقول:

حدثنا موسى، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عمارة، حدثنا أبو زرعة قال: دخلت مع أبي هريرة دارا بالمدينة فرأى أعلاها مصورا بصور، قال أبو هريرة:

(١) الأحسن استثماره، وتنميته لصالح اليتيم، والضرورة: لمن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: **قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا حبة، ويخلقوا ذرة»**.

ثم دعا بتور من ماء، فغسل حتى بلغ إبطه فقلت: يا أبا هريرة أشيء سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال: منتهى الحلية [1]، وهي الإشارة إلى المبالغة في الطهارة من الأدناس والأنجاس - أي - [الدناسات والنجاسات والرجس].

وحدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي حدثنا مروان، يعني ابن محمد الدمشقي - حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا ...»**[2] الحديث.

ومن أشد أنواع الظلم التي تولد البلاء بعينه، هو محاولة المبطلين الضالين إلحاق الضرر والأذى والمكر بالمحقين فاستحقوا اقتلاع بنيانهم، من القواعد والأساس، فخر عليهم السقف وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، ويوم القيامة لهم (خزي) وهو عذاب مهين، ويقول تعالى: ﴿ **أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ [الأنعام: ٢٢]، و﴿ **تُشَاقُّونَ فِيهِمْ** ﴾ [النحل: ٢٧]، أي تعادون المؤمنين وتخاصمونهم في شأنهم- وذلك تهكم بهم.

بينما يقول المجرمون في معرض إهانتهم للكفرة مع حصول الشماتة، ووصول الأذى لهم ﴿ **إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [النحل: ٢٧]الذين تتوفاهم الملائكة مداومين على ظلمهم أنفسهم، حتى أدركوا الموت وهم على ذلك - عندئذ ألقوا السلم - فأسلموا وأقروا لله بالعبودية، وادعوا بأن ما كانوا

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب نقض الصور، حديث (٥٩٥٣).

(٢) رواه مسلم، راجع كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم، حديث (٢٥٧٧).

عليه ليس بشرك مع الله ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [النحل:٢٨]، فقالت الملائكة يكذبونهم: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٢٨]، أي بما قدمتم من التكذيب والشرك والشقاق والفجور والمخاصمة... إلخ.

فلا ينفعكم هذا الكذب، فإنه تعالى يجازيكم على الكفر الذي كان منكم، وما وقع منكم من السيئات، ومن غير تقبل أعذار ولا شفاعات.

﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾. [غافر: ٥٢]

هم الظالمون لقد جحدوا بآيات الله.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾. [العنكبوت: ٤٩]

وكفروا بها:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾. [العنكبوت: ٤٧]

فحكم الله تبارك وتعالى فقال فيهم قوله:

﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾. [سبأ: ٤٢]

❑ ● ❑

❑ ● ❑ العاشر عذاب المتكبرين:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٦٩-٧٦]

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]

إذا من هم المتكبرون؟

إنهم الذين يجادلون في آيات الله دون أن ينتهوا، وما شاءوا عن ذلك ظنا منهم أنهم يعجزون تلك الآيات، بآيات أقوى وأشد، مما سمعوا أو شاهدوا، مع علمهم بالله ويقينهم بوجوده، كذبوا بالكتب كلها وبالرسل فلسان حالهم يستنكر على المرسلين إرسالهم ورسالاتهم، لأنهم يرون أنهم أفضل من الأنبياء والرسل، ويقولون: إن شركاءهم الذين اتخذوا من دون الله أولى بالطاعة، من دعوة أولئك الرسل وما أرسلوا به، إنهم على وجه القصر والتخصيص، أصحاب الوجوه السود، يوم القيامة جزاء لهم عما كانوا يفرحون به، في الأرض بغير الحق، وبما كانوا يمرحون ومثواهم جهنم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦]

والصرف في اللغة: أن يقول صرف الشيء صرفا: رده عن وجهه - ومنه صرف الأمر: دبّره ووجّهه.

إذا علمنا هذا فهمنا أن المراد هو التهكم، من هؤلاء وذمّ مصيرهم، لأنهم كذبوا بآيات الله في الجملة.

فسوف يعلمون - علم اليقين - بصدق ما توعدناهم به، عندما توضع الأغلال في أعناقهم، والسلاسل يسحبون، فإذا ما رأوا ما يوعدون (النار) حاولوا الفرار - إلا أنهم يدفعون ويساقون من الخلف، ويسحبون من تلك السلاسل حتى يردوا الماء المغلي في نار جهنم - وهو- [الحميم] ثم في النار

يسجرون.

والسجر في اللغة: الإناء ونحوه - سجره وسجورا: ملأه - سجر التنور: أحماه.

والظاهر أن يسحبون في الحميم بينما هم يردونه يسألون عن شركائهم الذين دعوهم من دون الله - فلربما استطاعوا دفع ذلك العذاب عنهم، أو إبعادهم منه وذلك بقصد إذلالهم وتعذيبهم والاستهزاء بهم.

فيقولون: غابوا عنا فلم نرهم، وحسبناهم شيئا فلما جربناهم، لم نجد شيئا - أي لسنا على شيء من عبادتهم.

فكان قوله تعالى:

﴿ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [غافر: ٧٤]، من المشركين وشركائهم بحيث لا يجد بعضهم بعضا، حال دعوة بعضهم بعضا.

ثم قال تعالى: ﴿ **ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ** ﴾ [غافر: ٧٥] - أي - إنما صار حالكم إلى ما صار إليه من الحميم وسودت وجوهكم، وسحبكم وسجركم في النار إلا بسبب ما كان لكم من الشرك وعبادة الأصنام، بهذا حق لكم أن تدخلوا أبواب جهنم السبعة المقسمة ﴿ **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ** ﴾ [الحجر ٤٤]. ليدخلوا من أي أبواب جهنم شاءوا فإن أرادوا الخروج دخلوا من باب آخر - وهكذا على الدوام من غير انقطاع - وهو ما يعني دخولهم أبواب جهنم كلها شاءوا أو ما شاءوا.

﴿ **فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ [غافر: ٧٦].

❑ ● ❑

الحادي عشر: عذاب المستكبرين والمترفين:

اعلم أن الاستكبار أقل من التكبر - كالبكاء والتباكي.

وهو ما يعني أن المستكبر دون المتكبر

فالمستكبر لا يصيبه التكبر إلا إذا ما كان قرينه ضعيفا، أو أقل منه، فهم قد اصطنعوا التكبر مواثاة للحال.

كقوله تعالى: ﴿ **فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا** ﴾ [غافر: ٤٧].

والمستكبر: مترف متنعم بما حاز أو ملك «ما لم يكن لغيره» من الكثيرين فصار مستكبرا بماله على من ليس له.

وسوف نسوق بعضًا من صور المستكبرين كما ذكرهم القرآن الكريم:

قال تعالى:

﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١٧٣].

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ [المائدة: ١٠].

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٤-٦٧].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٧].

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧, ٤٨].

فيما مضى ذكرنا ما فيه تنصيص على اعتقاد المستكبرين وأحوالهم وسلوكهم، ونقول في هذا المقام ما قاله تعالى في عذابهم.

قال تعالى:

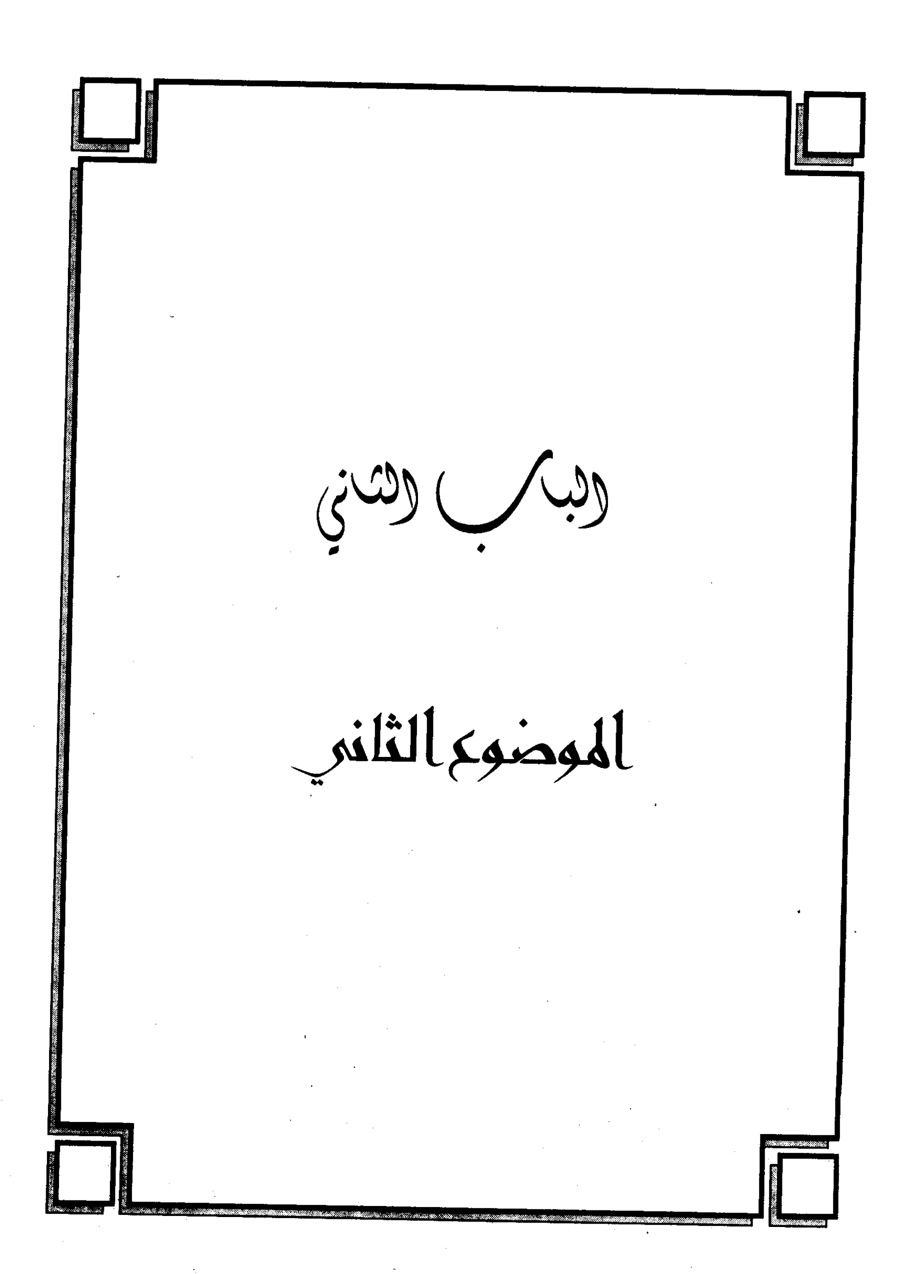
﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿ فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الجاثية: ٣٥].

❑ ● ❑



الباب الثاني

الموضوع الثاني

الأول: أطلال العقيدة:

يُكنى بها عن أصحاب الفكر الخرب والعقيدة الزائفة، والشرعية الضالة والذمم الفاسدة والضمير الميت، بحيث لا تجلب على أصحابها إلا الوبال.

﴿**قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا**﴾ [مريم: ٧٥].

أولئك قد التقوا مع قرنائهم فضلوا طريق الهداية، وصدوا عن سبيل الله كقوله تعالى: ﴿**وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ [الأعراف: ٤٥].

﴿**فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ**﴾ [الحشر: ١٧]. أي الصنفين وسنذكر في مقامنا صفاتهم - حياتهم - فكرهم - أعمالهم - سلوكهم - جزاءهم - مآلهم ونهايتهم استدلالا بما ورد في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢].

إن قيل: إن ظاهر الآية الكريمة يقتضي، أن يكون هؤلاء المتحدث عنهم، قد كفروا بآيات الله بالجملة، أما أهل الذمة [اليهود والنصارى] ليسوا كذلك لأنهم مقرون بالله وقدرته فكيف يكونون سواء مع من كفر بآيات الله ودلائل قدرته؟

قلنا: الواجب أن نصرف آيات بالجملة وبالاستغراق إلى المعلوم المطلق، وهو القرآن الكريم ومحمد ﷺ. فصار من كفر بالقرآن الكريم ومحمد ﷺ من اليهود والنصارى سواء من أهل الكفر على إطلاقه.

﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ والمعلوم أنهم ما قتلوا كل النبيين - إلا أن الألف واللام في قوله تعالى﴿ النَّبِيِّينَ ﴾ يجب حملها على المعهود، مما كان من قتلهم بعض النبيين.

﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٢١].

قرأ حمزة: ويقاتلون بالألف - والباقون [يقتلون]، وهما [عندي] سواء. لأنهم قد يبادرون بالقتل أو القتال، افتراء أو خوفا وقد يقاتلون هكذا ابتداء من غير قتال، ومن غير سبب معلوم.

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢٢] والمعنى: فجزاؤهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾[1] [آل عمران: ٢٢]

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ * كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٥ - ٨٨].

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٨٨ ، ٨٩].

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٩].

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(١) سبق القول فيما شابهه كثيرًا.

* ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٣ - ١٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾. [الحج: ٣، ٤].

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١].

﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾. [البقرة: ١٧٦].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ *

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ٩-١٤].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ الثاني الترهيب:

هو بلاغ للناس من الله تعالى - لعامة الناس لا للخاصة منهم نظير قوله تعالى:

﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

إنه بلاغ يحتوي على أصول الدين، وأحكام الشريعة، بما ينظم حياة الأفراد، والجماعات ويضمن حقوقهم، ويشكل قواعد السلوك الإنساني بين الناس، على اختلاف أديانهم، بين الناس والبيئة المحيطة، بما فيها الرفق بالحيوان، مما يتأكد به رقي الإنسان واستحقاقه التكريم، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

أما موضع السوء ومواقف التوبيخ والتقريع، فتلك بما كسبت أيدي بني البشر، لقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج:

.[١٠

يتضمن هذا البلاغ أربعة أسس عامة، إذا توافقت جـميعها، يتحقق البلاغ ويؤتي ثماره ... تلك هي؟

الأول: جملة الأوامر.

الثاني: جملة النواهي.

الثالث: آيات التبشير والترغيب.

الرابع: صور التنفير والترهيب.

المعلوم أن الرسول ﷺ مأمور بإبلاغ بلاغ الله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة:٦٧]، كما أننا نحن مـأمورون بإبلاغ بلاغ رسول الله ﷺ فيما بيننا إلى غيرنا لقوله ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**» بما في ذلك الأدعية الواردة عنه ﷺ نظير ذلك ما قال تعالى:

﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾. [الإسراء: ٥٣]

﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾. [الأعراف: ١٩٩]

﴿ **وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ** ﴾. [الدخان: ٢١]

﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [الأعراف:٣]

ومن ثم يكون:

التذكير بالفوز العظيم؛ بلاغًا.

والتهديد بالخسران المبين؛ بلاغًا.

والتقرير على أوامر الله تعالى؛ بلاغًا.

والتنبيه بنواهي الله تعالى؛ بلاغًا.

حاصل كل ذلك هو النصح والإرشاد.

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من آيات الترهيب التي تبين فساد حال الدنيا للكفـرة والفجرة، والعصـاة والطغاة، والمنافقين والفـاسقين، تناولت تلك الآيات كل صور الترهيب، دلائلها ودلالاتهـا على رجاء أن يرتدعوا عن غيهم، وينيبوا من كفرهم إلى طريق ربهم.

قال تعالى: ﴿ **يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأحقاف: ٣١، ٣٢].

وقال تعـالى: ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥١].

هو قول عظيم يرغب في الجهاد ويحض على إهمـال الكفار وعدم المبالاة بهم لأن الله تعـالى سـيلقى فـي قلوبهم الرعب، عند لقـاء المسـلمين لهم، مما يوجب استيلاء المسلمين عليهم، وهذا أمر عام يجري على ظاهره.

وذلك بسبب إشراكهم من غير حجة وبرهان - ذلك حظهم في الدنيا، أما في الآخرة: فإن مأواهم ومسكنهم النار.

قال تعـالى: ﴿ **لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ [آل عمران ١٩٦: ١٩٧].

بشرى للمسلمين ووعيد للكافرين، بأنهم سوف لا يستمرون على حالهم، إنما سيصيرون إلى الضـد مما هم عليه، وقوله تعالى ﴿**لا يَغُـرَّنَّكَ**﴾ فيـه تسلية للمسلمين وحـثهم على الصبر، لما هم فيـه من شدة الفقر الذي يعـيشونه، في مقابلة النعيم والمتاع والرغد، وهو حال الكفار، وإن ذلك ما كان إلا من تجارتهم

ورؤوس أموالهم التي يتنعمون بها.

وما ذلك إلا ﴿متاعٌ قليلٌ﴾لأنه مشوب بالآفات والحسرات - ثم هو قليل بالقياس على الخير الذي لكم، بما يبلغ منتهى الخير وعظيم النفع. ﴿والآخرةُ خيرٌ وأبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

أما هؤلاء الكفار فإن قليل النعمة الذي لـهم كان سببا للضرر العظيم الذي يحل عليهم ﴿ثُمَّ مأْوَاهُمْ جهَنَّمُ وبئْسَ الْمِهَادُ[١]﴾.

قال تعالى: ﴿ومن يعْصِ اللَّهَ ورَسُولَهُ ويتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخلْهُ نارًا خَالدًا فيهَا ولَهُ عذَابٌ مُّهينٌ﴾ [النساء: ١٤].

اعلم أن أعداء الله من المجوس وعبدة الطاغوت، واليهود والنصارى كل قد جاوز حدود الله بالمعصية، والاستمرار في عنادهم والمداومة على كفرهم وضلالهم، لذلك فإن الآية الكريمة، لا تتناول هؤلاء لا من قريب ولا من بعيد.

إن هي إلا خاصة بالمخصوصين المخاطبين بإيتاء اليتامى أموالهم وإيتاء النساء صدقاتهم، والانتهاء عن إيتاء الأموال للسفهاء. وهي خاصة كذلك، بمن خاف أن يترك أولاده ضعافا يتخبطهم الزمان.

ومن هنا يمكن القول بأن الآية الكريمة، تنبه إلى قوم مخصوصين، شرح لهم الله تعالى المواريث ونصابها وفرائضها.

تلك حدود الله - التي ورد عليها تنصيص في سورة النساء، من الآية الثانية حتى نهاية الثانية عشر [النساء: ٢ - ١٢[٢]].

وهي الآيات الخاصة بمن عصا وجاوز حدود الله، وما أنزل الله.

---

(١) الفراش. (٢) يجب معاودة المصحف الشريف.

وفي القول السابق نستخلص أن التجاوز والتعدي، كائن وقائم حال التجاوز على بعض الحدود (على سبيل التبعيض) ولا يقتصر على الذين أو الذي تجاوز حدود الله على إطلاقها.

فمن عصا وجاوز ﴿ **يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا** ﴾ [النساء: ١٤]، وله فيها عذاب مهين، جزاء لما استهان في الدنيا، بحدود الله وعصى شريعته، وجاوز أحكامه.

قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ** ﴾ [هود: ١٠٥، ١٠٦].

والمراد: يوم يأتي الشيء الهائل المعيب، الذي هو غاية في التهويل والتخويف والتقريع.

لا تكلم نفس إلا بإذنه تعالى نظير قوله تعالى ﴿ **لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا** ﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا**﴾، ففي النار لهم فيها زفير وشهيق[1].

قال تعالى: ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ [الرعد: ١٨].

الذين استجابوا لربهم إلى ما دعاهم إليه من الشهادة بالوحدانية وإقامة العدل والتصديق بالنبوة والرسل، والالتزام بالشرائع أولئك لهم (الحسنى).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الجنة.

أما الذين لم يستجيبوا لربهم فإنهم الأشقياء، لو أن لهم ما في الأرض

---

(١) سبق القول في هذين.

جميعا (من زروع وضروع وأشجار وأنهار وبحار، والأرض وما يخرج منها، وما يمشي عليها) ومثل ذلك معه، لافتدوا به ولكن هيهات ﴿فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

الافتداء: جعل أحد الشيئين بدلا من الآخر.

أولئك لهم سوء الحساب لأن سيئاتهم أحبطت حسناتهم، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. وهو قول من جملة، ما قال نبي الله موسى عليه السلام لقومه حيث قال الله تعالى حكاية عنه ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ معناه أن من اشتغل بشغل الله على نعمته، زاده الله منها وبارك له فيها.

أما الشكر، فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم، مع تعظيمه وتوطين النفس، على هذه الطريقة.

وأما الزيادة في النعم فهي أقسام: منها النعم الروحانية، ومنها النعم الجسمانية[1].

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾: المراد منه الكفران بالنعمة، لا الكفر على إطلاقه فإن كان ذلك ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

(١) انظر: مفاتيح الغيب (ج ٩ صـ ٢٩٠).

قال تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٥, ٥٦].

المراد من ذلك:

هو الالتزام بأوامر الله وطاعته واجتناب المعصية، وأدوات الكفر، من قبل أن يفاجئكم العذاب، وأنتم غاية في الغفلة والسهو واللعب، وفي ذلك التخويف والترديع.

وذلك كراهة أن تتأسف النفس، وتتحسر وتبلغ نهاية الحزن، على ما كان من التفريط، في ثواب الله تعالى وتضييع ذكره.

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٧، ٥٨].

قال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٢ - ٤٤].

ذرهم: أمر يحوي التهديد كقوله تعالى: (فأعرض) - ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [النجم: ٢٩].

أولئك مهددون متوعدون، مرتين في يومين.

الأول: يوم يصعقون، يوم النفخ في الصور، بنفخة الصعق لقوله تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [الطور: ٤٥].

أي ذرهم في غفلتهم يعـمهون، يمرحون، يلهون، يفرحـون حتى يدركهم الموت، وهم على ذلك.

الثاني: يوم يخرجون نظيـر قوله تعالى ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ [الزمر: ٦٨]. ليوم العـرض على الحي القيوم ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ [طه: ١١١]، ﴿**بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ**﴾ [القمر: ٤٦].

ولكن كيف حالهم عند الخروج من بطن الأرض؟

والإجابة في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال تعـالى: ﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ**﴾ [القمر: ٧].

وقال تعالى: ﴿**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**﴾ [المعارج: ٤٤].

ذلك اليوم الذي كنتم توعدون.

قال تعالى ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ**﴾ [الرحمن: ٣١].

أكثر المفسرين قالوا: سنقصدكم بالفعل.

وهو عندي كقوله تعالى: ﴿**اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ**﴾ [هود: ١٢١]. حتى تفرغ الأيام وينـتهي بكم الزمان الذي هـو عمل بغيـر حساب إلـى أن يأتي اليوم الذي فيه الحساب بلا عمل وهو يوم الجزاء﴿**الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ**﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿**أَيُّهَا الثَّقَلانِ**﴾ [الرحمن: ٣١].

أيها: نداء لمبهم ليقبل كل من يسمع وينتبه للنداء فيلبي.

الثقلان: هما الجن والإنس على المشهور.

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٨].

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً ﴾ [الإنسان: ٤]

﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [الطارق: ١٧]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤]

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ [الروم: ٤٤]

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [لقمان: ٢٣]

﴿ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المجادلة: ١٧]

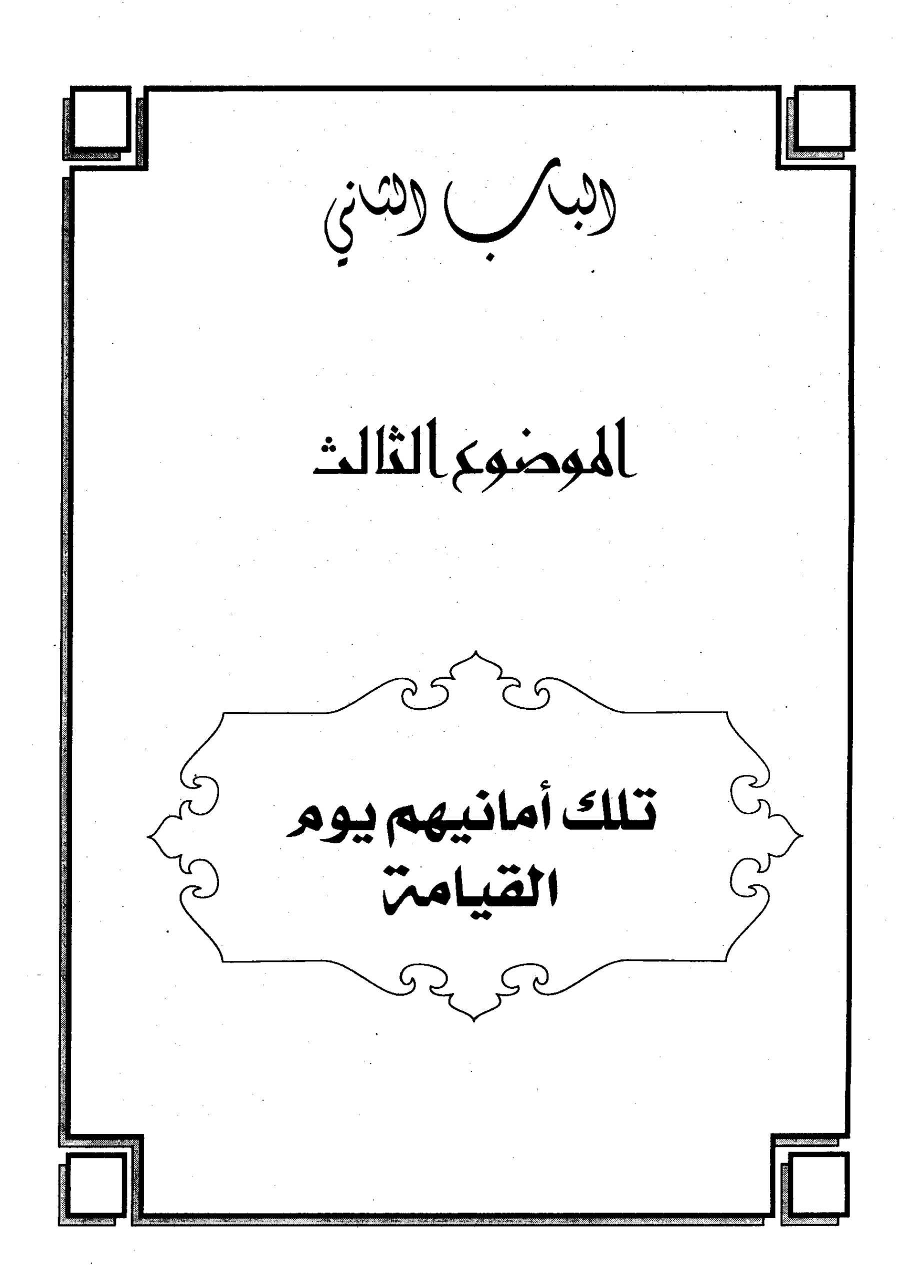
﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٨]

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ [التغابن: ٧]

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٩]

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء ١٤٥]

❑ ● ❑



الباب الثاني

الموضوع الثالث

تلك أمانيهم يوم القيامة

تلك أمانيهم يوم القيامة:

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ** ﴾ [آل عمران: ١٠].

المرء عند وقوع الخطب واشتداد النوائب، يفزع إلى المال والولد، لأنهما أقرب الطرق إلى دفع المضار ودرء المفاسد.

أما يوم القيامة فإنه يتصف بصفات مغايرة لما كان عليه الحال، في الأولى - لانعدام النفع بالمال والولد ولا الأخلاء إلا المتقين، ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]

إلا: استثناء منقطع بمعنى [بل] - أي - من جاء ربه بقلب سليم، وهو كقوله تعالى: ﴿ **وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ** ﴾ [ق: ٣٣].

ثم اجتمعت عليهم أسباب إيلامهم ببلوغ النهاية في شرح العذاب الواقع بهم.

الآية الكريمة وإن نزلت في أناس مخصوصين، فإن اللفظ عام يتناول من كفر، على تبعيض الكفر[1]، ومن وقع في الكفر على إطلاقه.

قال تعالى: ﴿ **يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ** ﴾

(١) يتناول الكافر وغيره ممن عصوا الله بجميع أنواع المعاصي.

[المعارج: ١١ - ١٤].

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ يفعلونهم: من التبصير المنسوب فعله للغير، لا من الإبصار الخاص بصاحبهم - إذ أن غيرهم يجعلونهم يبصرون.

لأن كل صاحب بصر من هؤلاء المجرمين، ذهبت عنه بصيرته، كذلك إبصاره، جزاء لهم على نسيان آيات الله تعالى حال كونهم في الدنيا، ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. وكقوله تعالى: ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢].

والمعنى أن تبصيرهم - يدل على عماهم - وهو أمر يلزم له إحداث قوة غير عادية، وتدخل إعجازي بأمر من الله تبارك وتعالى لجعل عيونهم قادرة على إبصار حالهم ومآلهم.

كأن يقول: بصوت عليا بكذا، فإذا حذفت حرف الجر يصح أن يقول بصرني علي. بذلك يتضح المعنى -(أي)- يعرفون بعضهم البعض، ومع ذلك لا يسأل حميم منهم حميمه، لانشغال كل منهم بأمره، ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٧].

وعلى ذلك يكون حالهم قد انكشف من بينهم لذا صار عظيم ودّهم، وغاية أمانيهم أن كل مجرم منهم لو يفتدي من عذاب ذلك اليوم، ببنيه وزوجاته وإخوته وقبيلته، التي انفصل عنها، والتي ينتهي إليها، وهي [التي تؤدي] أي ينتهي إليها في تنسيه وتعمل على دفع النوائب عنه، ذلك مبلغ غايته، لو كان هؤلاء جميعا تحت تصرفه، ورهن إشارته وفي متناول يده، ليبذلهم فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك ولكن هيهات هيهات.

﴿ كَلَّا ﴾: هي ردع للمجرم على أن يتمنى الافتداء، لأن ذلك لا ينجي من

العذاب.

﴿إنها﴾: ضمير عائد إلى النار، وقد دل وصف العذاب عليها.

﴿لظى﴾: اسم علم للنار، كقوله تعالى ﴿نارا حامية﴾ [القارعة: ١١]، أو ﴿نار الله الموقدة﴾ [الهمزة: ٦].

﴿نزاعة﴾: وفي اللغة: نازع نفسه إلى الشيء: اشتاق، نازع فلانا الشيء: جاذبه إياه، ويقال: نازعته نفسه إلى الشيء، أي دعته إليه، انتزع الشيء افتعله.

والنزوع في علم النفس، حال شعورية ترمي إلى سلوك معين، لتحقيق رغبة ما.

﴿للشوى﴾: سبق القول في الشواء في غير موضع.

وفي اللغة: [الشوى] أتراف الجسم، وشوي اللحم وغيره، أنضجه بمباشرة النار.

﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٧] أدبر عن الطاعة وتولى عن الإيمان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

غاية آمالهم وعظيم أمانيهم أن يقدموا ما في الأرض جميعا ومثله معه، إن استطاعوا تقديمه، أو أمكنهم حيازته، ليدفعوا عن أنفسهم ﴿لِيَفْتَدُوا﴾ [المائدة:

٣٦] سوء عذاب يوم الحساب، لعظم أهواله، لفعلوا وإن فعلوا ما تقبل منهم.

فما ظنك بعذاب النار إذ هم داخلوها - كيف؟ وبماذا يفتدون؟

ووقع القول عليهم لأنهم أصحاب النار، لهم فيها عذاب أليم.

ثم قال تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٣٧].

إذا كانوا قد طلبوا، أن يفتدوا من عذاب يوم القيامة [بما سبق بيانه] لما فيه من سود الوجوه، وهو الحشر وغبرة الوجوه وتطاير الصحف وطول الوقوف [١] ودنو الشمس على الرؤوس، والعرض للقصاص على الملك الديان... إلى غير ذلك مما الله تعالى به عليم.

فأنى لهم الحال في النار، وبما يطلبون النجاة، من عذابها، ويريدون الخروج منها، وما هم بخارجين كما قال تعالى: ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ [الحج: ٢٢].

وتدبر قوله تعالى: ﴿ **فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** ﴾ [البقرة: ١٧٥].

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٧].

زدنا في الحديث عن الفدية، وأماني هؤلاء في الافتداء - ونوجز في هذا المقام قوله تعالى: ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ أي ظهرت لهم أنواع من العقاب، لم تكن في حسابهم، ولم تدر بخلدهم.

ذلك على سبيل التنبيه والتقريع، من سوء المنقلب - عسى أن ينتهوا عن

(١) سبق القول أنه يوم يبلغ خمسين ألف سنة كسنواتنا أي: «مما نعد».

ظلمهم، ويعودوا ويتوبوا إلى ربهم، عمـا كان منهم من السيئات ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ [الزمر: ٥٤].

ثم قال تعالى: ﴿ **وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا** ﴾ [الزمر: ٤٨] أي ظهرت لهم أنواع العقاب، الواجب جزاء لهم بما اكتسبوا من السيئات. ﴿ **وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٨].

﴿ **وحاق** ﴾: البيت ونحوه حوقا: كنسه.

الحواقه: الكناسة، المحوقة: المكنسة.

وذلك نظير قوله تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿ **وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٨]، وهو تنبيه من الله تعالى على عظم عقابهم وسوء مصيرهم.

❑ ● ❑

ثالثا:

الأول بماذا نطق أهل النار؟

قلنا: إن لفظ المجـرم يتناول، الكافـر والفـاسق والمنافق والعـاصي، على السواء - وذلك لأن الله تعالى جمـعهم فيها - فوجب كون الكل مـجتمعين في عذاب جهنم، خالدين فيها على الدوام.

ولقد قرأت القرآن الكريم وتدبرته، وسمعت شرحـا فيه، وتصفحت كثيرا من المراجع العظيـمة في تفـسيـر القرآن الكريم، فـوجدت المجرمين ولم يـسمع بقولهم، إلا عند موضعين اثنين نبينهما.

١- أولا : نداء المجرمين يوم العرض:

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ١٢].

أي أنك سترى عجبا لو ترى حالهم وتعاين خجلهم من شدة إساءتهم للرب حال الحياة الدنيا.

عندئذ قالوا: ربنا أبصرنا وسمعنا الحشر في يوم النشر وهو قول مغاير لما قالوا في الحياة الأولى ﴿ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** ﴾[الواقعة: ٤٧] وقولهم: ﴿ **وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ** ﴾ [المدثر: ٤٦ , ٤٧].

لقد شاهدوا في قولهم ﴿ **أبصرنا** ﴾ ﴿ **وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٣٠]والنطق بالشهادة اعتماد لا يصح إلا بسلامة عضوي السمع والإبصار حيث باجتماعهما معا، يحصل اليقين.

فلما رأوا الحشر، وعاينوا النشور قالوا: آمنا - والإيمان من غير عمل لا ينفع، لأن العمل تكليف، من تكليفات الحياة الدنيا - أي - فأرجعنا إليها نعمل صالحا .

ومثل هؤلاء ﴿ **وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٧٧]،وقد قال تعالى عنهم: ﴿ **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ** ﴾ [الأنعام: ٢٨].

لذلك صار استحقاقها كما قال تعالى: ﴿ **وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [السجدة: ١٣] .

ثم قال تعالى: قاض بعدل قضائه ﴿ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة: ١٤].

الأجر والجزاء واللقاء واحد - فذوقوا جزاء لكم على نسيانكم وتناسيكم لقاء يومكم هذا، وما لكم على ذلك من جزاء الله الحكم العدل اللطيف الخبير ﴿إنا نسيناكم﴾ - أي تركناكم بالكلية، من غير التفات لكم ولحالكم، مع انقطاع كل وسائل رجائكم. ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٢- ثانيا: نداء المجرمين في النار :

﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: ٤]، ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٤١]. فبعد أن قال تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾. شرح الخلود وبين كنهه، وذكر موضعه فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤, ٧٥].

فإن ما صاروا إليه لم يقع عليهم هكذا بقدرة الله، وبقضائه وقدره بل بمشيئة هؤلاء واختيارهم لما قال تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

فلما قد اجتمعت عليهم في عذاب جهنم كل أسباب الشقاء والألم والعذاب الذي لا يخفف وهم يائسون من انقطاعه أو رفعه أو تأجيله، وهم في ذي العذاب خالدون[١] نادوا من بطن جهنم ومن داخل التوابيت المغلقة عليهم، وهم مطرودين من النار بالزفير، وعند عودتهم فيها لما تضربهم الملائكة بمقامع من حديد - وهم فيها عند قعرها يصطرخون.

سُمعَتْ لهم أصوات استغاثة، ونداءات استنجاد ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] اكتفاء بزعيم خزنة جهنم، لأن جهنم لا يدخلها إلا أعظم أقسام الكفر والطغيان، والظلم - وهؤلاء لا يتجرءون على الطلب من الله-

(١) على الرفع هم أصحابه، وعلى النصب للحال.

(٢) مفاتيح الغيب (ج١٤ صـ ١٢١).

البته، فإن الله تعالىٰ لا يجيبهم إلىٰ طلبهم. . وذلك هو حال اليائس من فرج.

قرأ ابن مسعود (يا مال) بحذف الكاف للترخيم.

فقيل لابن عباس إن ابن مسعود قرأ(ونادوا يا مال) . فقال: ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم، وأجيب عنه، بأنه إنما حسن هذا الترخيم بأنه يدل علىٰ أنهم بلغوا في الضعف والنحافة إلىٰ حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها.

ثم قال لهم مالك ﴿**إِنَّكُم مَّاكِثُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٧]، أي لأزمنة متطاولة، وأحقاب ممتدة، فمع شدة اليأس الذي يحل عليهم وغلبته لهم يسكتون أوقاتا. ثم يعاودون الاستغاثة أوقاتا أخرىٰ من شدة ما بهم.

ولكن [مالك] يؤخر إجابتهم استخفافا بهم، وزيادة في غمهم، وإذا أجابهم قال: ﴿**إِنَّكُم مَّاكِثُونَ**﴾ [الزخرف: ٧٧].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ الثاني: قول من خفت موازينه:

يراد بهم أولئك الذين عملوا الصالحات، واقترفوا السيئات، بحيث لم يتساوىٰ جزاؤهم من الثواب والعقاب، لأن عمل الصالحات الذي قدم، كان خفيفا في مقابلة ما اقترفت من الآثام فرجحت جهة السيئات، علىٰ حساب الصالحات، وهم الذين قال الله تعالىٰ فيهم:

﴿**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٣، ١٠٤].

فيه أنه من طغت سيئاته علىٰ حسناته فأتت عليها، فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم، كونهم يساقون إلىٰ النار ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾

[غافر: ١٨] . لأنهم قد فتنوا أنفسهم وضيعوها.

وقد كتب عليهم الخلد في جهنم من غير تأبيد، حالهم هنالك [أن النار تضربهم وتأكل لحومهم، وتشوي جلودهم].

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ وقيل: إن الكلوح هو تقليص الشفتان، وضمورهما العليا لأعلى، والسفلى لأسفل بحيث يبدو مشوها تماما.

ومثل هؤلاء يرجى خروجهم من النار، إذا شاء الله تعالى، دلالة ذلك أن الله جل وعلا [يكلمهم] لا على سبيل تسليتهم، إنما زيادة في عذابهم، وإلامهم وحسرتهم، فهذا عذاب واقع بهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٥] وهو خطاب الله تعالى لهم، ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

الملاحظ: أنهم نادوا من غير أداة نداء. نداءهم للقريب - [ربنا] كأنه حوار في حضرة الله تعالى.

والشقوة والشقاء واحد: لقلب الواو ألف: والتاء همزة، أو العكس كقوله، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧]، ﴿رب السماوات﴾ [النبأ: ٣٧].

أي أن الذي سلكنا في جهنم، شقاؤنا الناتج عن طلب اللذات المحرمة، وفعل المنكرات، واجتناب الطاعات، وتحصيل المنهيات، وظلم النفس والناس، وذلك بسبب الضلال الذي كنا فيه.

ثم استعذبوا نداء الله فتكرر قولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧].

أي: أخرجنا من هذه الدار، وأخرجنا من النار، فإن عدنا فإنا ظالمون.

قال تعالى: ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

أي: لتظلوا في النار، أذلاء مدحورين، ولا تكلمون في رفع العذاب عنكم، أو تخفيفه جزاء لكم على ما كان منكم، وهو بسبب:

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩، ١١٠].

ثم ذكر تعالى ما يقتضي الأسف والحسرة والندم، بأن، ذكر لهم ما جازي به ذلك الفريق من عباده (وهم المؤمنون) بقوله تعالى:

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ الثالث: ماذا قال المتحاجون في النار؟

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: ٤٧ - ٥٠].

فيه أن أهل النار يتحاجون فيما بينهم، (يحاجج بعضهم بعضا) حيث يقول الضعفاء من الأتباع لرؤسائهم المتبوعين: إنا كنا لكم في الدنيا من التابعين العاملين في خدمتكم، الراجين رضاكم، فهل أنتم أيها الرؤساء تقدرون على أن تدفعوا عنا العذاب، أو تخفيفه، أو تأجيله، أو رفعه، (أو شيئا من ذلك)؟ على

رغم علمهم أن ساداتهم لا يمكنهم عمل شيء، من هذا إلا أنه كلام يبالغ في تخجيل هؤلاء السادة، وإيلام قلوبهم، فقال المستكبرون: ﴿**إِنَّا كُلٌّ فِيهَا**﴾ أي المستكبرون والضعفاء على السواء، كل (واقعين) نصبا على الحال في ذي العذاب، فإن كانت لنا قدرة على درء العذاب، عنكم لدفعناه عن أنفسنا.

إن الله قد حكم بين العباد: بتوصيل كل ذي حق حقه، ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ**﴾ [غافر: ٣١].

ولما يحصل لهم جميعا اليأس من حصول غايتهم ونيل مأربهم، سألوا [خزنة جهنم] وقالوا لهم:

﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر: ٤٩].

فيقول الملائكة كلاما كله الاستهزاء والتوبيخ والسخرية يحصل معه زيادة الحسرة، وإيلام القلوب ﴿**قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ**﴾[غافر: ٥٠]، من الآيات والحكمة والبراهين العقلية، والنقلية، فاستكبرتم، فأعرضتم واستكبرتم ﴿**وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا** ﴾ [الفتح ١٢].

قال الذين في النار: ﴿**بلى**﴾.

فردت الملائكة: إنا لا نجترئ على ذلك، لأنه لم يحصل منكم الإيمان، ولم تدركوا توبة، فلا شفاعة لنا فيكم.

والظاهر أن أهل النار، لم يخاطبوا الله، أو يخاطبهم كما كان حال (من خفت موازينه) ولم يخاطبوا ﴿**مالك**﴾ رئيس الخزانة - إنما لعظيم ذنبهم وقبح جرمهم، وخسيس فعلهم ليس لهم من يجيبهم في سؤالهم إلا خزنة النار ، وقد قالوا لهم:

ادعوا أنتم، ودعاؤكم غير مستجاب له وغير مسموع به فإنه إذا خال من جميع جهات النفع عارٍ من كل أقسام الإفادة.

﴿ **وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ**﴾ [غافر: ٥٠].



• الرابع: قول من في السعير:

قلنا: إن السعير درك (موضع) في النار لمن أوتي كتابه وراء ظهره ولمن كذب بالساعة، وأنها عذاب الشياطين، ومآل من أكل مال اليتيم ظلمًا، كما أن الله تعالى أعدها للكافرين كذلك، إلا أنهم الكافرون الأقل قسمًا من الكافرين الملقين في جهنم، وقد يقصد بالكافرين هنا:

أنهم المؤمنون الذين عطلوا بعض أحكام الله تعالى في المواريث وشرب الخمور وحد الزنى وأكل مال اليتيم... إلخ، مما يكون على الضد تمامًا من الكافرين على الإطلاق.

وعلى ذلك جاز جمع المتقدمين في لفظ (الكافرين) حين قوله تعالى:

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً** ﴾ [الأحزاب: ٦٤ ، ٦٥].

سبق القول كثيرًا في هؤلاء، أما هاهنا فنعرض لعذابهم وقولهم:

قال تعالى:

﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ** ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

إن الوجه أشرف أعضاء الجسم وأعلاه وأكرمه لأنه يجتمع فيه أهم وأكثر وأخطر الحواس والتي ذكرت في القرآن الكريم تشريفًا لها كقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ** ﴾[البلد: ٨، ٩] ﴿ **وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾[الحاقة: ١٢]

فهو الجامع المانع لأدق الحواس وأهمها على الإطلاق (السمع والبصر والكلام والتذوق).

فإذا ما تعرض وجه الإنسان لما يؤذيه فإن الإنسان يجعل (جنة) وقاية على

وجهه كأن يستر بذراعيه أو بكلتا يديه أو نحو ذلك ولكن هيهات ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ** ﴾ [الطور: ٧، ٨].

وهو عذاب تشتد معه الحسرة ويتزايد به الألم وسوف لا يغني عنهم من العذاب شيئًا لأنهم انصرفوا عن طاعة الله إلى معصيته ومن رضاه إلى سخطه فاستحقوا العذاب بدلاً من النعيم.

فلما اشتد بهم العذاب: باءوا إلى الله بذنوبهم ولا ينفعهم هذا أيضًا.

﴿ **فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [الملك: ١١].

وقالوا: ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا** ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ثم سألوا الله تعالى أن يذيقهم ضعفين من العذاب بسبب ضلالهم وإضلالهم.

فالشيء ومثله معه: ضعف، وهو العذاب الواجب لهم عن كونهم مضلين مضللين.

وكونهم صيرونا إلى هذا العذاب بعد أن أضلونا في الدنيا، هذا ضعف والمراد: (أضعافًا كثيرة من العذاب)، على سبيل الشماتة والتشفي من تعذيبهم.

﴿ **وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٦٨].

ولم يرد في هؤلاء ما يفيد أن الله جل وعلا كلمهم ولا مالك ولا خزنة جهنم، إن هو إلا قولهم وانتهى.

❑ ● ❑

الخامس: قول من شهدوا على أنفسهم بالكفر:

قال تعالى: ﴿ **وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٧ ـ ٣٩].

وهو كقول المتحاجين في النار.

ويمكنك مراجعة كتب التفسير المعتمدة.

● ●

السادس: نداء أصحاب النار:

قلنا: إن النار اسم جنس ـ عام ـ تحوي (موضع) دركات من العذاب مختلفة ومتنوعة سبق القول فيها.

إذ إن من دخلوا جهنم ـ ومن برزت لهم الجحيم ـ ومن سلكتهم سقر، ومن أعدت لهم السعير، وكذلك من وعدوا بالويل، ومن صاروا في النار الكبرى، الحامية، الموقدة. . . إلخ، كلهم جميعًا في النار.

هؤلاء جميعًا لما وصل بهم العذاب ما وصل من شدة الحريق والأكل من طعام الغسلين والشرب من الحميم والأكل من شجرة الزقوم، ومع ذلك سقوا ماءً حميمًا فقطع أمعاءهم.

ثم مع ذلك ﴿ **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ** ﴾ [الأعراف: ٤١]، ولهم فيها زفير من شدة احتراقهم وهم فيها لا يسمعون.

وبتنوع العذاب عليهم أو هم يتنقلون بينه (عذاب أليم، عذاب شديد،

عذاب الحريق، عـذاب مهين، عذاب عظيم، أشد العذاب) كـما ورد في القرآن الكريم، يزاد لإطعامهم الأثيم، والمهل، والضريع.

ولما استـقرت بهم الأمـور وبات المعذبون في الـنار كل في موضـعه، ولما استنفدوا أسئلتـهم، التي حل عليهم بسببها التـوبيخ والمكث، والخجل والحرمان وسائر صور العذاب ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ [الزمر: ٤٧].

فبعد أن قالوا ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا** ﴾ [االمؤمنون: ١٠٧]، قال: ﴿ **قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ** ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

نادوا مالك، سبق ذلك، قال: ﴿ **إِنَّكُم مَّاكِثُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧٧].

قـالوا لخزنة جـهنم: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا** ﴾ [غـافر: ٤٩]، قـالوا: ﴿ **فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ** ﴾ [غافر: ٥٠]، فلما لم يجد أهل النار أمامهم إلا أصحاب الجنة الهانئين المنعمين الفائزين.

﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وفيه تجد أن أهل النار قد سألوا عن ما شابه شهوتهم في الدنيا وهو الطعام والشراب الأمر الذي قد ماتوا عليـه بعد أن أفنوا حياتهم عليه، ظنًا منهم أن الماء الذي يطلبونه من أهل الجنة سوف ينفعهم في التبرد من حر النار وإطفاء لهيبها.

وقد ظنوا كذلك أن أهـل الجنة إذا ما أفاضوا عليهم بـبعض مما رزقهم الله فلربما أطفأ لهيب البطون أو قد يروي العطش.

إلا أن أهل الجنة أجـابوا إلى غيـر مطلبـهم، وقالوا لهم قـولاً زاد غمـهم وتعاظمت به آلامهم، حيث قالوا:

﴿ **إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ولا ريب أنه قول يشير إلى فساد الحال وكمال الخيبة.

❑ ● ❑

الموضوع الثاني: أسقف من فضة وأبواب من ذهب

اعلم أن الله تعالى إذا اختص بعضًا من عباده بنوع من فضله ورحمته في الدين كأن يفقههم فيه ويوقفهم على صحيح أحكامه، فإن في ذلك، خير لهم من الحسب والجاه والمال الذي يبلغ أقصى غايات البغض.

وذلك لأن الدنيا كلها على مشارفة الانقضاء والانقراض بينما فضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد ودهر الدين.

ومن المعلوم أن الله تعالى لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة لعلة غائبة يعلمها ويدخرها في علمه.

﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴾ [هود: ١١٨].

تلك هي مشيئة الله بالناس، عامة الناس، وهي مشيئة غير قهرية، خالية من إرادة الإذعان، لأن الله تعالى جعل المشيئة للإنسان، في حق اختيار معبوده، فمن شاء عبد (الله) ومن شاء عبد (الطاغوت).

﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٩].

فآمن بالله تعالى من شاء، وكفر كذلك من أراد.

وتعبر الأرقام في عصرنا تعبيرًا دقيقًا عن عدد المسلمين حول العالم حيث أفادت إحدى الإحصائيات الرسمية[1] المتاحة لديّ بأن عدد المسلمين إجمالاً بلغ عام (١٩٨٧م) ما عدده (٩٢١٠٢٧٠٠٠) تسعمائة وواحد وعشرين مليونًا وسبعة

(١) مجلة العربي ـ الكويت ١٩٨٧ .

وعشر ألفًا وتوقع الإحصائيون أن عدد المسلمين في عام (٢٠٠٠م) سيبلغ المليار وثلاثة ملايين نسمة.

وقد قارب ذلك التوقع أن يتطابق مع الواقع حيث يبلغ عدد المسلمين الآن عام (٢٠٠٢م) المليار مسلم والثلاثمائة ملايين وخمسين ألفًا من بين تعداد سكان العالم البالغ عددهم الآن (ستة مليارات وستمائة ملايين نسمة تقريبًا).

أي أن: عدد المسلمين/ عدد سكان العالم ٪ = عدد المسلمين إلى سكان العالم بالنسبة المئوية.

أي: $\frac{١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠}{٦,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠} = \frac{١}{٥}$ تقريبًا.

أي أن نسبة المسلمين إلى نسبة غير المسلمين تبلغ ٢٠٪ تقريبًا.

وحيث إن حال الدنيا يقتضي مغايرة ومفاضلة الغني على الفقير ومنه يقع الناس في تفضيل الغني على الفقير.

والواقع أن الكفار ممن تناولهم كتابنا أوسع رزقًا وأرغد عيشًا وأتم رفاهة وأكثر تنعمًا من المؤمنين لأنهم ﴿ **اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ** ﴾ [البقرة: ١٧٥]. حيث طلبوا عرض الدنيا وجاهدوا فيها ورغبوا العاجلة وأرادوها.

﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ** ﴾ [الإسراء: ١٨].

إلا إن الله تعالى بحكمته وقدرته ومشيئته ينزل ما يشاء بقدر لمن يشاء لأن الله تعالى عالم بكل الخلائق ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤]، وليقين علم الله تعالى بهم قال سبحانه ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ** ﴾ [الشورى: ٢٧].

وبالنظر إلى الاستقامة المرجوة للحياة على سطح المعمورة، ومن أجل أن يميز الله الخبيث من الطيب، شاء أن لا يكون الناس أمة واحدة في الكفر أو أن يدخلوا جميعًا في الإيمان.

والثابت أنه من اليسير أن يميز الله الكافرين به بمميزات عظيمة من الترف والتنعم إلا أنه تعالى لم يشأ ذلك، حتى لا يسارع الناس جميعًا في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق.

سبحانه وتعالى لطيف بعباده عليم بهم.

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٣٣ـ٣٥].

ومن أكثر الأسباب التي تفيد وتشعر بالتنعم والرفاهية بما يميز هؤلاء عن سائر الناس، بما يرغب الناس في أن يصير حالهم مثل حال هؤلاء.

أن يجعل الله أسقف منازل الكفرة من فضة، ومعارج منازلهم كذلك السقف: غطاء المنزل ونحوه، وهو أعلاه المقابل للأرض، أما «الأسقف»: (وتخفف الفاء) رئيس من رؤساء النصارى فوق القسيس ودون المطران.

ومعارج: (المعارج، والمعاريج)، واحد وهي جمع معراج وهي المصاعد أو السلالم للأدوار العليا يعتلون بيوتهم بواسطتها وهو المراد من قوله تعالى ﴿ **عليها يظهرون** ﴾ [الزخرف: ٣٣]، كقوله تعالى: ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ** ﴾ أي يعتلوه [الكهف: ٩٧].

وكذلك لكانت أبواب بيوتهم وأسرتهم التي يتكئون عليها، كل ذلك من فضة.

وجعل الله لهم فوق ذلك كله (زخرفًا) وهي الزينة، فما أجمل أن ترصع الأسرة، والأبواب والأسقف بفصوص من الزمرد والياقوت وقطع الذهب والماس.

فذلك خير دليل على سعة الرزق ورغد العيش، وكمال الرفاهية، وتمام التنعم، والمستفاد من ذلك:

أن الناس إذا ما اجتمعوا على ذلك يكونون قد اجتمعوا على الكفر أما تضييق الأمر على المؤمنين فكائن فيه فتنة واختبارًا، فمن دخل في الإسلام فإنما هو طالب لرضوان الله تعالى حينئذ يحصل له الثواب وعظيم الأجر.

❑ ● ❑

❑ ● ❑ الخامس: الخسران المبين

قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ [الكهف: ١٠٣ ، ١٠٤].

من هم الأخسرون أعمالاً؟

إنهم الذين يأتون بالأعمال فيظنون أنها الطاعات وهي في ذات الوقت معصية لأنهم ما عملوها عن إيمان بل أتوها طلبًا للأجر في الدنيا والثواب في الآخرة، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة.

لأنه لا فائدة من فعل الصالحات كلها إلا واحدة: فصد عن سبيل الله ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ [الكهف: ١٠٥].

واقرءوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً** ﴾ [الكهف: ١٠٢]. تجده مناسبًا أشد المناسبة لأول الآية [الكهف: ١٠٦]، وهي:

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾.

وذلك لأن حال الكفار وسلوكهم كائن بين قوله تعالى: ﴿ **أعتدنا جهنم** ﴾ [الكهف: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾ [الكهف: ١٠٦]، لأنهم الموصوفون بالكفر أولاً وأخيرًا واتخذوا آيات الله ورسله هزوا - أي استهزاء وسخرية.

قال تعالى:

﴿ **فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ [الزمر: ١٥].

لأن الكفر بالله يوقع النفس في هلاك عظيم كخسارة النفس والأهل.

فأما خسارة الأهل: فإنهم إن كانوا من أهل النار فقد صيروهم إلى النار معهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد فارقوهم أبدًا إلى أن يشاء الله.

﴿ **ألا** ﴾: أداة للتنبيه.

﴿ **ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾: حصرًا على أن أي خسارة لا تقاس في مقابلة ذلك الخسران المبين، وقد عرضنا له سابقًا.

أما الخسارة فإنها: نقيض الربح، وخسر الشيء: أضاعه وأهلكه، يقال خسر ماله، خسر الشيء نقصه.

وعلى ذلك فإن الخسارة إضافة إلى ما سبق فإنها تتناول (عقوق الوالدين، وعدم برهما، والامتناع عن الإحسان إلى الجيران، وتأمينهم في أموالهم وأعراضهم، والقول الباطل، وإيذاء الأخرسين(الطير والحيوان)، والإساءة إلى الطبيعة، ولا يحض على إطعام المسكين وإيواءه وفضح المستجير، والغيبة والنميمة والسعي بها بين الناس، وإلقاء النفس في التهلكة، وغض الطرف عن

الخطر الداهم، وانتهاك حرمات الله، والجور عليها، بالقتل والسرقة والزنى، وفي الجملة يكون: إتيان المنهيات، واجتناب التكليفات، هؤلاء:

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٦].

❑ ● ❑

❑ ● ❑ السادس: سيريكم آياته فتعرفونها:

قال تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٣].

الحمد لله قصرًا ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبأ: ١].

سوف يرى الناس آياته فيعرفونها.

الملاحظ: أنه تعالى لم يقل (سترون آياته)، بل قال تعالى ﴿ سيريكم ﴾ على أحد المعنيين.

الأول: أنه ادخر تلك الآيات القاهرة في علمه وسينزلها لكم في حينها.

الثاني: أن تلك الآيات تتنزل الآن كما ستتنزل مستقبلاً بينما لا يمكنكم رؤيتها، لأن قوة إبصاركم لا تستطيع أن ترى الآيات القاهرة إلا من خلال عملية الإرائة، التي يمنحها الله تعالى لكم ليريكم بفضله هو ما شاء لكم أن تروه لأن من غير هذه الإرائة لا تمكنكم الرؤية، كقوله تعالى: ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ [النازعات: ٢٠].

فله تعالى الحمد على ذلك.

هي آيات الله بينها لعامة الناس من غير استثناء:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

[فصلت: ٥٣]، فمن رأى وآمن ونسبها إلى خالقها وباريها صار من الذين يخشون ربهم بالغيب، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

ومن عمت عينيه، وأصابت أذنيه الصمم، وغفل قلبه عن ذكرها، وصفهم الله جل وعلا بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٨، ١٠٩].

إنهم بذلك قد أمنوا مكر الله ظنًا منهم ناسين أو متناسين قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٨].

لأنهم كذلك قد غفلوا عن بلاغ الرسول ﷺ بأمر الله ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

هو إذا جزاءهم المستحق عن تكذيبهم وكفرهم ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

- ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].
- ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].
- ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

لقد تناولنا في كتابنا السابق الفوز العظيم للجنة ومنازلها ودرجاتها ونعيمها والطرق المؤدية إليها... إلى آخره.

أما العمل الذي نحن نتدارسه الآن المعنون (الخسران المبين) تناولنا فيه حال

الضد من الفوز، وهو الخسران، والضد من الجنة، وهي النار، إعمالاً لقوله تعالى:

﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

فإظهار التمييز بين الفئتين أمر واجب وإعمال التصنيف لازم لقوله تعالى:

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

فالبلاغ بوقوع العذاب واجب ﴿فذكر﴾ [الغاشية: ٢١].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وليتذكر الجميع معي قوله تعالى:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٣ ، ٨٤].

وانتهاء أقول ما قال تعالى:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٢ ـ٢٤].

ألا ذلك هو (الخسران المبين).

الختام

الحمد لله الحمد لله الحمد لله.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

الحمد لله الذي أعاننا على إتمام بحثنا وإنجاز ما وعدنا به في إنجاز وإنهاء وتقديم الجزء الثالث (الخسران المبين) ضمن مسلسلنا الكتابي الذي بدأناه بكتابنا (هذا بلاغ للناس).

الحمد لله الذي هدانا طريقًا ومنحنا فكرًا ووهبنا نورًا وأتم علينا نعمته في الاهتداء إلى ما انتهينا إليه.

وبعد...

فقد تناولنا ما قدمنا له في معرض الكتاب في محاولة مني لتذكير نفسي وحضراتكم من لقاء الله تعالى فيه ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠]. فإن الإنسان كثيرًا ما ينسى ما قدمت يداه، وفريقًا آخر ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧]. وقد ضلوا طريق الله اختيارًا وهو تعالى ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٤٤].

فقد تثمر التذكرة وتنفع الموعظة فنتوب جميعًا إلى الله متابًا ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ [القصص: ٦٧].

عندئذ سيتغير وجه الأرض ويتصحح مصار الحياة البشرية وهو الغاية من إرسال الرسل والأنبياء والرسالات ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً** ﴾ [الإسراء: ٩٥].

لقد تقدمت إلى الإخوة القراء الكرام ببلاغنا السابق وتحدثنا إليهم عن (الفوز العظيم) وتناولنا معًا، مأساة (الخسران المبين).

وسوف نلتقي قريبًا إن شاء الله تعالى في عمل جديد، شارفنا على تخريجه وتقديمه والله نسأل العون عليه، سنعرض فيه إن شاء الله، للتوبة، ونلتمس فيه طريقًا إلى النجاة، ونسلك فيه طريقًا نحو كمال رضوان الله.

والله تعالى نسأل التوفيق والسداد في فعل الخير واجتناب السوء وأن يرزقنا التقوى.

﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل: ١٢٨].

دعاء الختام

اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت رب العرش العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم.

اللهم ارزقنا الأمن والأمان والسلم والسلام.

اللهم انفعنا بما علمتنا وعلمنا ما ينفعنا وزدنا علمًا.

اللهم ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.

ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد.

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

اللهم تقبل مني ما قدمت واغفر لي ما قد سلف.

اللهم اجعل ما قدمت في ميزان حسناتي واطرح عني به من سيئاتي.

اللهم أصلح لنا قلوبنا وأحوالنا وأولادنا واهدِ اللهم نسـاءنا وأولادنا واغفر لآبائنا وأجدادنا ومشايخنا وإخواننا وأخواتنا وأصدقائنا وإخوة ديننا، واهدنا اللهم فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت واقض عنا شـر ما قضيت إنك سبحانك تقضي ولا يقضى عليك.

اللهم ارزقنا الإيمان والعـمل به والقـرآن وتلاوته والخـشوع ولذته والأمـان ونعمـته والصبر وحكمـته وطهر اللهم قلوبنـا من الغل والحقد والحسـد والنفاق والرياء يارب العالمين.

آمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحابته أجمعين ..آمين

المراجع

١ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخـاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني . ط - دار الغد العربي.

٢ ـ مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي . ط - دار الغد العربي.

٣ ـ الأحاديث القدسية وشروحها. د / محمد محمد تامر.

٤ ـ تفسير من نسمات القرآن الكريم . كلمات وبيان . غسان حمدون. جامعة دمشق . ط - دار السلام.

٥ ـ تفسيـر وبيان كلمات القرآن الكريم. الشـيخ حسنين مخلوف . ط - اليمامة للطباعة / دمشق.

٦ ـ تفسير الجلالين . للسيوطي . ط - دار المنار.

٧ ـ الترغـيب والترهيب من الحديث الشريف . للإمـام الحافظ المنذري . المكتب الفني لوزارة الأوقاف.

الفهرست

الصف: السيد أبو سيف ٠١٢٢٥١١٢٠٣